

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



صور من حياة الصحابيَّات



صور من حياة الصحابة

الدكتور عبد الرحمن أفندي الباشا

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م



جميع الحقوق محفوظة الطبعة الأولى

إن حقوق التأليف والنشر محفوظة لورثة المؤلف فقط دون سواهم، ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب كلياً أو جزئياً أو تخزينه في أي نظام لحزن المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أي هيئة أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو استنساخاً أو تسجيلاً، أو الترجمة لأي لغة أخرى، أو تحويله إلى عمل إذاعي أو مرئي، أو غيرهما، إلا بإذن كتابي من أصحاب الحق الشرعي... ويمكن استخدام الكتاب كوحدة متكاملة وبإسـم مؤلفه كمرجع دراسي، كما يمكن الاقتباس منه وذكره كمرجع.

(ودار الأدب الإسلامي) بصفتها المخول الوحيد عن ورثة المؤلف بطباعة ونشر وتوزيع كتب الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا - رحمه الله - تحذر من التعامل بأي طبعة غير مشروعة.

الفهرسة في النشر

٢٢٩ / ع • ص

عبد الرحمن رأفت الباشا (١٩٢٠ - ١٩٨٦م)

صور من حياة الصحابيـات - [ليماسول]: دار الأدب الإسلامي، ١٤١٧هـ [١٩٩٦م]

١٢٧ ص؛ ١٢ سم.

رقم الإيداع: ١٩٩٦/٥٣٩٢م

الإعداد الفني والجمع التصويري بدار الأدب الإسلامي

دار الأدب الإسلامي

شركة ذات مسؤولية محدودة

القاهرة - ص.ب ٨١

ليماسول - ص.ب: ٣١١٠ قبرص

بريد بانوراما ١١٨١١ ج.٠٠٠ ع

هاتف: ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧

هاتف: ٢٦٦٠١٦٤ - ٢٠٢

فاكس: ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧

صور من حياة الصحايات

في هذا الكتاب

- ٧ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ
- ٢١ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
- ٣٥ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ
- ٤٧ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ
- ٦١ نَسِيبَةُ الْمَازِنِيَّةُ
- ٧٩ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ
- ٩٥ الْغَمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ
- ١٠٩ أُمُّ سَلَمَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ

أُمُّ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ مِنَ الرُّضَاعِ

هَذِهِ السَّيِّدَةُ الرَّضَانُ الرَّزَانُ أُبَيْرَةٌ لَدَى كُلِّ مُسْلِمٍ ...
عَزِيزَةٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ ...
فَمِنْ تَذْيِيبِهَا الطَّاهِرِينَ رَضَعَ الْغُلَامُ السَّعِيدُ مُحَمَّدُ
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ...
وَعَلَى صَدْرِهَا الْمُفْعَمُ بِالْمَحَبَّةِ غَفَا ...
وَفِي حِجْرِهَا الطَّافِحِ بِالْحَنَانِ دَرَجَ ...
وَمِنْ فَصَاحَتِهَا وَفَصَاحَةِ قَوْمِهَا نَبِيَّ «سَعْدِي»
نَهَلَ ...

فَكَانَ مِنْ أَيْمَنِ الْأَيْبَاءِ (١) كَلَامًا ...

(١) الْأَيْبَاءُ: جَمْعُ بَيْتٍ، وَهُوَ مَا يَفْصَحُ عَنِ كَلَامِهِ بِأَحْسَنِ التَّبْيِينِ.

وَأَفْصَحَ الْفُصْحَاءِ نُطْقًا .

إِنَّهَا السَّيِّدَةُ الْجَلِيلَةُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ أُمُّ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
- صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مِنَ الرَّضَاعِ .

* * *

وَلِإِرْضَاعِ السَّيِّدَةِ السَّعْدِيَّةِ لِلطُّفْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَلَأَ
الدُّنْيَا بَرًّا وَمَرْحَمَةً ...

وَأَتْرَعَهَا خَيْرًا وَهَدِيًّا ...

وَزَانَهَا خُلُقًا وَفَضْلًا ...

قِصَّةٌ مِنْ رَوَائِعِ الْقِصَصِ ، حَكَّتْهَا حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ
بَيَّانَهَا الْمَشْرِيقِ الْأَيْبِقِ الْجَذَابِ ...

وَأَسْلُوبِهَا الْمُتَأَلِّقِ الرَّشِيقِ الْمُمْتِعِ .

فَتَعَالَوْا نَسْتَمِعْ إِلَيْهَا ...

فَخَبَّرَهَا عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ مِنْ رَوَائِعِ الْأَخْبَارِ .

* * *

قَالَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ :

خَرَجْتُ مِنْ مَنَازِلِنَا أَنَا وَزَوْجِي وَابْنُ لَنَا صَغِيرٌ^(١)
نَلْتَمِسُ الرُّضْعَاءَ^(٢) فِي مَكَّةَ ، وَكَانَ مَعَنَا نِسْوَةٌ مِنْ قَوْمِي
يَسِي « سَعِيدٍ » قَدْ خَرَجْنَ لِيْمِثْلٍ مَا خَرَجْتُ إِلَيْهِ .

وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ قَاحِلَةِ مُعْجِدِيَّةِ^(٣) ...

أُتَيْسَتْ الزُّرْعَ ...

وَأَهْلَكْتَ الضُّرْعَ فَلَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْعًا .

وَكَانَ مَعَنَا ذَابْتَانِ عَجْفَاوَانِ^(٤) مُسِنَّتَانِ
لَا تَرَشْحَانِ^(٥) بِقَطْرَةٍ مِنْ لَبَنِ فَرَكِبْتُ أَنَا وَغُلَامِي
الصَّغِيرُ إِحْدَاهُمَا ...

أَمَّا زَوْجِي فَرَكِبَ الْأُخْرَى ، وَكَانَتْ نَاقَتُهُ أَكْبَرُ سِنًا
وَأَشَدُّ هَزَالًا .

(١) زوجها: هو الحارث بن عبد العزى الشُعَيْبِي وَيَكْنَى بِأَبِي كَبِشَةَ ،
أَمَّا ابْنُهَا : فَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ .

(٢) نَلْتَمِسُ الرُّضْعَاءَ : نَبْحُ عَنْ الْمَوْلُودِينَ الْجَدِّدِ .

(٣) مُعْجِدِيَّةُ : لَا مَطَرَ فِيهَا وَلَا نَبَاتِ .

(٤) الْعَجْفُ : الْهَزَالُ .

(٥) لَا تَرَشْحَانِ : لَا تَقْطُرُ ضُرُوعَهَا بِقَطْرَةٍ لَبَنِ .

وَكُنَّا - وَاللَّهِ - مَا نَنَامُ لِحِظَةٍ فِي لَيْلِنَا كُلِّهِ لِشِدَّةِ بُكَاءِ
طِفْلِنَا مِنَ الْجُوعِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي ثَدْيِي مَا يُغْنِيهِ ...
وَلَمْ يَكُنْ فِي ضِرْعِي نَاقَتِنَا مَا يُغْذِيهِ ...
وَلَقَدْ أَبْطَأْنَا بِالرُّكْبِ بِسَبَبِ هُزَالِ أُنَانِنَا (١) وَضَعْفِهَا
فَضَجِرَ رِفَاقُنَا مِنَّا ...

وَشَقَّ عَلَيْهِمُ السَّفَرُ بِسَبَبِنَا .
فَلَمَّا بَلَغْنَا مَكَّةَ وَبَحَثْنَا عَنِ الرُّضْعَاءِ وَقَعْتُ فِي أَمْرٍ لَمْ
يَكُنْ بِالْحُسْبَانِ ... ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ إِلَّا وَغَرِضَ عَلَيْهَا
الْغُلَامُ الصَّغِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ...
فَكُنَّا نَأْبَاهُ لِأَنَّهُ يَتِيمٌ ، وَكُنَّا نَقُولُ :
مَا عَسَى أَنْ تَنْفَعَنَا أُمُّ صَبِيٍّ لَا أَبَ لَهُ ۱؟
وَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ لَنَا جَدُّهُ ۱؟

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمُضِ عَلَيْنَا غَيْرُ يَوْمَيْنِ اثْنَيْنِ حَتَّى ظَفِرَتْ

(١) الأنان : هي أنثى الحمار .

كُلُّ امْرَأَةٍ مَعَنَا بِوَاحِدٍ مِنَ الرُّضَعَاءِ ... أَمَا أَنَا فَلَمْ أَظْفَرْ
بِأَحَدٍ ... فَلَمَّا أَرْمَعْنَا الرَّحِيلَ قُلْتُ لِزَوْجِي :

إِنِّي لِأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى مَنَارِلِنَا وَالْقَى بِنِي قَوْمِنَا
خَاوِيَةَ الْوِفَاضِ (١) دُونَ أَنْ أَخْذَ رَضِيعاً فَلَيْسَ فِي
صُورِنَجَاتِي امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا رَضِيعٌ .

وَاللَّهِ لِأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ ، وَلَا أَخْذَنَّهُ .

فَقَالَ لَهَا زَوْجُهَا :

لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ، خُذِيهِ فَعَسَى أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً
فَذَهَبْتُ إِلَى أُمِّهِ وَأَخْذَنَّهُ ...

وَوَاللَّهِ مَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غُلَاماً
سِوَاهُ .

* * *

فَلَمَّا رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلي وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي ،

(١) خَاوِيَةُ الْوِفَاضِ : الْوِفَاضُ هُوَ جِلْدَةٌ تَوْضَعُ تَحْتَ الرَّحْلِ لِتَلْقَى الطَّحِينَ ،
وَخَالِيَةُ الْوِفَاضِ كِتَابَةٌ عَنِ الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالْإِفْلَاسُ التَّامُ .

وَأَلْقَمْتُهُ ثَدْيِي ، فَدَرَّ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُدِرَّ بَعْدَ
أَنْ كَانَ حَاوِيًا حَالِيًا ...

فَشَرِبَ الْغُلَامُ حَتَّى رَوِيَ

ثُمَّ شَرِبَ أَخُوهُ حَتَّى رَوِيَ أَيْضًا ، ثُمَّ نَامَا ...

فَأَضْجَعْتُ أَنَا وَزَوْجِي إِلَى جَانِبَيْهِمَا لِتَنَامَ بَعْدَ أَنْ كُنَّا
لَا نَحْظِي بِالنَّوْمِ إِلَّا غِرَارًا^(١) بِسَبَبِ صَبِيئَتِنَا الصَّغِيرِ .

ثُمَّ حَانَتْ مِنْ زَوْجِي الْبَيْفَاتُ إِلَى نَاقَتِنَا الْمُسِنَّةِ
الْعَجْفَاءِ ...

فَإِذَا ضَرَعَاهَا حَافِلَانِ مُمْتَلِئَانِ ...

فَقَامَ إِلَيْهَا دَهْشًا ، وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ عَيْنَيْهِ وَحَلَبَ مِنْهَا
وَشَرِبَ .

ثُمَّ حَلَبَ لِي فَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى امْتَلَأْنَا رِيًّا وَشِبْعًا .
وَبِتْنَا فِي خَيْرِ لَيْلَةٍ .

(١) غِرَارًا: قليلاً.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ لِي زَوْجِي :

أَتَذْرِبِينَ يَا حَلِيمَةَ أَنْكَ قَدْ ظَفِرْتِ بِطِفْلِ مُبَارَكٍ ١٩
فَقُلْتُ لَهُ :

إِنَّهُ لَكَذَلِكَ وَإِنِّي لَأَرْجُو مِنْهُ خَيْرًا كَثِيرًا .

* * *

ثُمَّ خَرَجْنَا مِنْ مَكَّةَ فَرَكِبْتُ أَتَانَنَا الْمُسِنَّةَ ...

وَحَمَلْتُهُ مَعِيَ عَلَيْهَا ؛ فَمَضَتْ نَشِيطَةً تَتَقَدَّمُ دَوَابَّ
الْقَوْمِ جَمِيعًا حَتَّى مَا يَلْحَقُ بِهَا أَيُّ مِنْ دَوَابِّهِمْ .
فَجَعَلْتُ صَوَاجِحِي يَقْلُنَ لِي :

وَيَحِكُ يَا ابْنَةَ أَبِي ذُوَيْبٍ ، تَمَهَّلِي عَلَيْنَا ...

أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانُكَ الْمُسِنَّةَ الَّتِي خَرَجْتُمْ عَلَيْهَا ١١٩

فَأَقُولُ لَهُنَّ : بَلَى ... وَاللَّهِ إِنَّهَا هِيَ .

فَيَقْلُنَ : وَاللَّهِ إِنَّ لَهَا لَشَأْنًا .

* * *

ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا فِي بِلَادِ بَنِي «سَعْدِ»، وَمَا أَعْلَمُ
أَرْضاً مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَشَدُّ قَحْطاً مِنْهَا وَلَا أَقْسَى جَدْباً.

لَكِنْ غَنَمْنَا جَعَلَتْ تَغْدُو إِلَيْهَا مَعَ كُلِّ صَبَاحٍ فَتَرَعَى
فِيهَا ثُمَّ تَعُودُ مَعَ الْمَسَاءِ ...

فَتَحْلِبُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ نَحْلِبَ، وَنَشْرَبُ مِنْ
لَبَنِهَا مَا طَابَ لَنَا أَنْ نَشْرَبَ وَمَا يَحْلِبُ أَحَدٌ غَيْرُنَا مِنْ غَنَمِهِ
قَطْرَةً.

فَجَعَلَ بَنُو قَوْمِي يَقُولُونَ لِرُغْيَانِهِمْ :

وَيْلَكُمْ ... اسْرُحُوا بِغَنَمِكُمْ حَيْثُ يَسْرُحُ رَاعِي بَنِي
أَبِي ذُوَيْبٍ.

فَصَارُوا يَسْرُحُونَ بِأَغْنَامِهِمْ وَرَاءَ غَنَمِنَا؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ
كَانُوا يَعُودُونَ بِهَا وَهِيَ جَائِعَةٌ مَا تَرْشُحُ لَهُمْ بِقَطْرَةٍ.

وَلَمْ نَزَلْ نَتَلَقَى مِنَ اللَّهِ الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرِ حَتَّى انْقَضَتْ
سَنَتَا رِضَاعِ الصَّبِيِّ ...

وَتَمَّ فِطَامُهُ ...

وَكَانَ خِلَالَ عَامِيهِ هَذَيْنِ يَنْمُو نُمُوًّا لَا يُشْبِهُ نُمُوًّا
أَقْرَانِهِ ...

فَهُوَ مَا كَادَ يُبِيحُ سِنِّيهِ عِنْدَنَا حَتَّىٰ عَدَا غُلَامًا قَوِيًّا
مُكْتَمِلًا.

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ قَدِمْنَا بِهِ عَلَىٰ أُمِّهِ، وَنَحْنُ أَحْرَصُ
مَا نَكُونُ عَلَىٰ مُكْتَبِهِ عِنْدَنَا، وَبَقَائِهِ فِينَا لِمَا كُنَّا نَرَىٰ فِي
بِرْكِيهِ، فَلَمَّا لَقِيتُ أُمَّهُ طَمَأْنَنْتُهَا عَلَيْهِ وَقُلْتُ :

لَيْتَكَ تَتْرَكِينَ بُنْيَ عِنْدِي حَتَّىٰ يَزْدَادَ قُوَّةً وَقُوَّةً ...

فَإِنِّي أَحْشَىٰ عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ ...

وَلَمْ أَزَلْ بِهَا أَفْنِعُهَا وَأَرْغُبُهَا حَتَّىٰ رَدَّتْهُ مَعَنَا ...

فَرَجَعْنَا بِهِ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ .

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَيَّ مَقْدَمِ الْغُلَامِ مَعَنَا غَيْرَ أَشْهُرٍ
مَعْدُودَاتٍ حَتَّىٰ وَقَعَ لَهُ أَمْرٌ أَخَافْنَا ... وَأَقْلَقْنَا ...

وَهَزَّنَا هَذَا .

فَلَقَدْ خَرَجَ ذَاتَ صَبَاحٍ مَعَ أَخِيهِ فِي عُتَيْمَاتٍ لَنَا
يُرْعِيَانِيهَا خَلْفَ بَيْوتِنَا؛ فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْنَا
أَخُوهُ يَغْدُو، وَقَالَ:

الْحَقَّ بِأَخِي الْقُرَشِيِّ، فَقَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا
ثِيَابٌ بَيْضٌ فَأَضْجَعَاهُ ...
وَشَقًّا بَطْنُهُ ...

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَرَوْجِي نَعْدُو نَحْوَ الْعَلَامِ، فَوَجَدْنَاهُ
مُتَّعِقَ الْوَجْهِ (١) مُرْتَجِفًا ...

فَالْتَزَمَهُ رَوْجِي، وَضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي ...

وَقُلْتُ لَهُ: مَالِكُ يَا بُنَيَّ ۱۱۹

فَقَالَ: جَاعَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضٌ
فَأَضْجَعَانِي، وَشَقًّا بَطْنِي، وَالتَّمَسَا شَيْئًا فِيهِ، لَا أَذْرِي
مَا هُوَ ثُمَّ خَلَّيَانِي، وَمَضَيَا.

فَرَجَعْنَا بِالْعَلَامِ مُضْطَرِبَيْنِ خَائِفَيْنِ.

(١) مُتَّعِقَ الْوَجْهِ: انتفع وجهه أي تغير لونه.

فَلَمَّا بَلَغْنَا خِيبَاءَنَا التَّفَتَّ إِلَيَّ زَوْجِي وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ ،
ثُمَّ قَالَ :

إِنِّي لَأُحْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ الْمُبَارَكُ قَدْ أُصِيبَ
بِأَمْرٍ لَا قَبِيلَ لَنَا بِرَدِّهِ ...

فَالْحَقِيقَةُ بِأَهْلِيهِ ، فَإِنَّهُمْ أَقْدَرُ مِنَّا عَلَى ذَلِكَ .

* * *

فَاخْتَمَلْنَا الْغُلَامَ وَمَضَيْنَا بِهِ حَتَّى بَلَغْنَا مَكَّةَ ، وَدَخَلْنَا
بَيْتَ أُمِّهِ ، فَلَمَّا رَأَتْنَا حَدَقَتْ فِي وَجْهِهِ وَلَدِيهَا ، ثُمَّ بَادَرَتْنِي
قَائِلَةً :

مَا أَقْدَمَكَ بِمُحَمَّدٍ يَا حَلِيمَةً وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً
عَلَيْهِ ؟ شَدِيدَةَ الرَّغْبَةِ فِي مَكِّيهِ عِنْدَكَ ؟

فَقُلْتُ : لَقَدْ قَوِيَ عُودُهُ ...

وَاسْتَمَلَتْ قُوَّتُهُ ...

وَقَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ نَحْوُهُ ، وَتَخَوَّفْتُ عَلَيْهِ مِنَ
الْأَحْدَاثِ ؛ فَأَدْبَيْتُهُ إِلَيْكَ ...

فَقَالَتْ : اضدُقِينِي الْخَبَرَ فَمَا أَنْتِ بِالَّتِي تَرْغَبُ (١)
عَنِ الصَّبِيِّ لِهَذَا الَّذِي ذَكَرْتِهِ ...

ثُمَّ مَا زَالَتْ تُلِحُّ عَلَيَّ وَلَمْ تَدَعْنِي حَتَّى أُخْبِرْتُهَا بِمَا
وَقَعَ لَهُ ، فَهَدَأَتْ ثُمَّ قَالَتْ :

وَهَلْ تَخَوَّفْتِ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ يَا حَلِيمَةُ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَتْ : كَلَّا ، وَاللَّهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ ...

وَإِنَّ لِإِنِّي لَشَأْنًا ... فَهَلْ أُخْبِرُكَ خَبْرَهُ ؟

فَقُلْتُ : بَلَى ...

قَالَتْ : رَأَيْتُ - حِينَ حَمَلْتُ بِهِ - أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ

أضَاءَ لِي فُصُورَ بُضْرِي مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ...

ثُمَّ إِنِّي حِينَ وَلَدْتُهُ نَزَلَ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ ،

رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ...

ثُمَّ قَالَتْ دَعِيهِ عَنكَ ، وَأَنْطَلِقِي رَاشِدَةً ...

(١) ترغب عنه : تزهد به ولا ترهبه .

وَمَجْزِيَةٍ عَنَّا وَعَنْهُ خَيْرًا .

فَمَضِيَّتُ أَنَا وَرَوْحِي مَحْزُونَيْنِ أَشَدَّ الْحُزْنِ عَلَى
فِرَاقِهِ ... وَلَمْ يَكُنْ غُلَامُنَا بِأَقْلٍ مِنَّا حُزْنًا عَلَيْهِ ، وَأَسَى
وَلَوْعَةً عَلَى فِرَاقِهِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَلَقَدْ عَاشَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ حَتَّى بَلَغَتْ
مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا^(١) ...

ثُمَّ رَأَتْ الطُّفْلَ الْيَتِيمَ الَّذِي أَرْضَعَتْهُ ، قَدْ غَدَا لِلْعَرَبِ
سَيِّدًا ... وَلِلْإِنْسَانِيَّةِ مُرْشِدًا ... وَلِلْبَشَرِيَّةِ نَبِيًّا ...
وَلَقَدْ وَفَدَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ آمَنَتْ بِهِ وَصَدَّقَتْ
بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ ...

فَمَا إِنْ رَأَاهَا حَتَّى اسْتَطَارَ بِهَا سُرُورًا ، وَطَفِقَ يَقُولُ :
(أُمِّي ... أُمِّي ...)

ثُمَّ خَلَعَ لَهَا رِدَاءَهُ ، وَبَسَطَهُ تَحْتَهَا ، وَأَكْرَمَ وَفَادَتْهَا

(١) عِتْيًا : جاوز الحد في العمر .

أَبْلَغَ الْإِكْرَامِ وَعُيُونُ الصَّحَابَةِ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَيْهَا فِي غَبْطَةٍ
وَإِجْلَالٍ ...

* * *

صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ الْبِرِّ الْوَفِيِّ ...

صَاحِبِ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ ...

وَرِضْوَانِ اللَّهِ عَلَى السَّيِّدَةِ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ ...

ظَهَرَ^(١) النَّبِيُّ الْعَظِيمُ ﷺ (*) ...

* * *

(١) الظفر: هي المرضعة غير الأم.

- (٥) للاستزادة من أخبار حلیمة السعدیة انظر:
- ١ - تاریخ الطبری: ٩٧٠/٢ وانظر الفهارس فی العاشر.
 - ٢ - الطبقات الكبرى: ١١٠/١، ١٥١، ٥٠/٤.
 - ٣ - حياة الصحابة: انظر الفهارس فی الرابع.
 - ٤ - الاستيعاب (على هامش الإصابة): ٢٧٠/٤.
 - ٥ - السير لابن هشام: انظر الفهارس.
 - ٦ - الإصابة فی تمييز الصحابة: ٢٧٤/٤ (الترجمة) ٢٩٩.
 - ٧ - أعلام النساء لكحالة: ٢٩٠/١، ١٠ - أشد الغابة: ٦٧/٧.
 - ٨ - صفوة الصفوة: ٥٧/١، ١١ - دلائل النبوة: ١١١.
 - ٩ - ابن كثير: ٢٧٣/٢، ١٢ - المحبر: ١٠، ١٣٠.

صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

« صَفِيَّةُ أَوَّلُ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ
قَتَلَتْ مُشْرِكاً دِفَاعاً عَنِ دِينِ اللَّهِ »

مَنْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ الْجَزَلَةُ الرَّزَّانُ (١) الَّتِي كَانَتْ يَحْسُبُ
لَهَا الرِّجَالُ أَلْفَ حِسَابٍ ؟ .

مَنْ هَذِهِ الصَّحَابِيَّةُ الْبَاسِلَةُ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ
قَتَلَتْ مُشْرِكاً فِي الْإِسْلَامِ ؟ ...

مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْحَازِمَةُ الَّتِي أَنْشَأَتْ لِلْمُسْلِمِينَ أَوَّلَ
فَارِسٍ سَلَّ سَيْفاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ ...

إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْهَاشِمِيَّةُ الْقُرَشِيَّةُ عَمَّةُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

(١) الجزلة : الأصيلة الرأي ، والرزان : الرصية الرزينة .

اكتتف المجد صفيّة بنت عبد المطلب من كل

جانب :

فأبوها ، عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ
وزعيم قريش وسيدّها المطاع .

وأُمّها ، هالة بنت وهب أخت أمّنة بنت وهب والدة
الرسول ﷺ .

وزوجها الأول ، الحارث بن حرب أخو أبي سفيان
ابن حرب زعيم بني (أمية) ، وقد توفي عنها .

وزوجها الثاني ، العوام بن حويلد أخو خديجة بنت
حويلد سيّدة نساء العرب في الجاهليّة ، وأولى أمّهات
المؤمنين في الإسلام .

وابنتها ، الزينب بنت العوام حواري رسول الله ﷺ .

أبعد هذا الشرف شرف تطمّح إليه النفوس غير

شرف الإيمان ١٩ .

* * *

لَقَدْ تُوفِّي عَنْهَا زَوْجَهَا الْعَوَامُ بْنُ خُوَيْلِدٍ وَتَرَكَ لَهَا
طِفْلاً صَغِيراً هُوَ ابْنُهَا «الرَّبِيزُ» فَنَشَأَتْهُ عَلَى الْخُشُونَةِ
وَالْبَأْسِ ...

وَرَبَّتُهُ عَلَى الْفُرُوسِيَّةِ وَالْحَزْبِ ...

وَجَعَلَتْ لِعَبْتِهِ فِي بَزِي السَّهَامِ وَإِضْلَاحِ الْقَيْسِيِّ .
وَدَأْبَتْ عَلَى أَنْ تَقْدِفَهُ فِي كُلِّ مَخُوفَةٍ^(١) ،
وَتُقْحِمَهُ^(٢) فِي كُلِّ خَطَرٍ ...

فَإِذَا رَأَتْهُ أَحْجَمَ أَوْ تَرَدَّدَ ضَرْبَتُهُ ضَرْباً مُبْرِحاً ، حَتَّى
إِنَّهَا غُوَيْبَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ أَحَدِ أَعْمَامِهِ حَيْثُ قَالَ لَهَا :
مَا هَكَذَا يُضْرَبُ الْوَلَدُ ... إِنَّكَ تَضْرِبِيَهُ ضَرْبَ
مُبِغِضَةٍ لَا ضَرْبَ أُمَّ ؛ فَارْتَجَزَتْ^(٣) قَائِلَةً :

مَنْ قَالَ قَدْ أَبْغَضْتُهُ فَقَدْ كَذَبَ

(١) مخوفة : موقف يُخَافُ مِنْهُ .

(٢) تُقْحِمُهُ : تَدْفِعُهُ وَتَدْخُلُهُ .

(٣) ارتجزت : قَالَتْ شِعْراً عَلَى بَحْرِ الرَّجَزِ .

وَأِنَّمَا أَضْرِبُهُ لِكَيْ يَلْبَ (١)
وَيَهْزِمَ الْجَيْشَ وَيَأْتِيَ بِالسَّلْبِ

* * *

وَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَأَرْسَلَهُ
نَذِيرًا وَبَشِيرًا لِلنَّاسِ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَبْدَأَ بِذَوِي قُرْبَاهُ جَمَعَ بَنِي
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ... نِسَاءَهُمْ وَرِجَالَهُمْ وَكِبَارَهُمْ وَصِغَارَهُمْ،
وَخَاطَبَهُمْ قَائِلًا:

(يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا).

ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَحَضَّهُمْ عَلَى
التَّضَدِّيْقِ بِرِسَالَتِهِ ...

فَأَقْبَلَ عَلَى النُّورِ الْإِلَهِيِّ مِنْهُمْ مَنْ أَقْبَلَ، وَأَعْرَضَ عَنْ
سَنَاهُ (٢) مَنْ أَعْرَضَ؛ فَكَانَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي

(١) يلب: يصبح ليلياً، واللييب الذكي العاقل.

(٢) سناه: ضياؤه.

الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ (١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ ... عِنْدَ ذَلِكَ
جَمَعَتْ صَفِيَّةُ الْمَجْدَ مِنْ أَطْرَافِهِ : سُودَدَ الْحَسَبِ ، وَعِزَّةَ
الْإِسْلَامِ .

* * *

انْضَمَّتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى مَوْكِبِ الثَّوْرِ
هِيَ وَفَتَاهَا الرَّبِيعُ بْنُ الْعَوَامِ ، وَعَانَتْ مَا عَانَاهُ الْمُسْلِمُونَ
السَّابِقُونَ مِنْ بَأْسِ قُرَيْشٍ وَعَنْتَهَا وَطَعْيَانَهَا .

فَلَمَّا أَدَانَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَى
الْمَدِينَةِ خَلَفَتِ السَّيِّدَةُ الْهَاشِمِيَّةُ وَرَاءَهَا مَكَّةَ بِكُلِّ مَا لَهَا
فِيهَا مِنْ طُيُوبِ الذُّكْرِيَّاتِ ، وَضُرُوبِ الْمَفَاحِرِ وَالْمَآثِرِ
وَيَمَّمَتْ وَجْهَهَا شَطْرَ الْمَدِينَةِ ، مُهَاجِرَةً بِدِينِهَا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ .

* * *

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ السَّيِّدَةَ الْعَظِيمَةَ كَانَتْ يَوْمَئِذٍ
تَخْطُو نَحْوَ السِّتِينَ مِنْ عُمرِهَا الْمَدِيدِ الْحَافِلِ ...
فَقَدْ كَانَ لَهَا فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ مَوَاقِفُ مَا يَزَالُ

(١) الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ : الْفَوْجِ الْأَوَّلِ .

يَذْكُرُهَا التَّارِيخُ بِلِسَانِ نَدِيٍّ بِالْإِعْجَابِ رَطِيبٍ بِالشَّئَاءِ ،
وَحَسْبُنَا مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ مَشْهَدَانِ اثْنَانِ :

كَانَ أَوْلُهُمَا يَوْمَ أُحُدٍ ...

وَتَانِيهِمَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ .

* * *

أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي « أُحُدٍ » فَهِيَ أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَ
جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ فِي ثَلَاثَةِ (١) مِنَ النَّسَاءِ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَجَعَلَتْ تَنْقُلُ الْمَاءَ ، وَتَزْوِي الْعِطَاشَ ، وَتَبْرِي
السَّهَامَ ، وَتُضْلِحُ الْقَيْسِيَّ (٢) .

وَكَانَ لَهَا مَعَ ذَلِكَ غَرَضٌ آخَرٌ هُوَ أَنْ تَرْقُبَ الْمَعْرَكَةَ
بِمَشَاعِرِهَا كُلِّهَا ...

وَلَا غَرَوُ (٣) فَقَدْ كَانَ فِي سَاحَتِهَا ابْنُ أُخِيهَا مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ...

(١) ثلثة : طائفة .

(٢) القيسي : جمع قوس وهو آلة الحرب يُرمى بها بالسهم .

(٣) لا غرو : لا عجب .

وَأُخُوهَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (١) أَسَدُ اللَّهِ ...
 وَابْنُهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ حَوَارِيُّ (٢) نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ...
 وَفِي الْمَعْرَكَةِ - قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ -
 مَصِيرُ الْإِسْلَامِ الَّذِي اعْتَقَفْتُهُ رَاغِبَةً ...
 وَهَاجَرَتْ فِي سَبِيلِهِ مُحْتَسِبَةً ...
 وَأَبْصَرَتْ مِنْ خِلَالِهِ طَرِيقَ الْجَنَّةِ .

* * *

وَلَمَّا رَأَتْ الْمُسْلِمِينَ يَنْكَشِفُونَ (٣) عَنْ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ...

وَوَجَدَتِ الْمُشْرِكِينَ يُوشِكُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى
 النَّبِيِّ ﷺ وَيَقْتُلُوا عَلَيْهِ ؛ طَرَحَتْ سِقَاءَهَا أَرْضاً ...

وَهَبَّتْ كَاللَّبْوَةِ (٤) الَّتِي هُوَ جِمٌّ أَشْبَاهُهَا وَانْتَزَعَتْ مِنْ

(١) حمزة بن عبد المطلب : انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة»
 للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .
 (٢) الحواري : الناصر ، وحواريو الرسل الخاصة من أنصارهم .
 (٣) ينكشفون : يفرقون .
 (٤) اللبوة : أنثى الأسد .

يَدِ أَحَدِ الْمُنْهَزِمِينَ رُمَحَهُ ، وَمَضَتْ تَشْقُ بِهِ الصُّفُوفَ ،
وَتَضْرِبُ بِسِنَانِهِ الْوُجُوهَ ، وَتَزْأُرُ فِي الْمُسْلِمِينَ قَائِلَةً :

وَيَحْكُمُ ، أَنْهَزَمْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ !!؟

فَلَمَّا رَأَاهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقْبِلَةً خَشِي
عَلَيْهَا أَنْ تَرَى أَخَاهَا حَمْزَةَ وَهُوَ صَرِيحٌ ، وَقَدْ مَثَلَ بِهِ
الْمُشْرِكُونَ أَبْشَعَ تَمْثِيلٍ ^(١) فَأَشَارَ إِلَى ابْنِهَا الزُّبَيْرِ قَائِلًا :

(الْمَرْأَةُ يَا زُبَيْرُ ... الْمَرْأَةُ يَا زُبَيْرُ ...) .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الزُّبَيْرُ وَقَالَ :

يَا أُمَّهُ إِلَيْكَ ... إِلَيْكَ يَا أُمَّهُ ^(٢) .

فَقَالَتْ : تَنْعَ لَا أُمَّ لَكَ .

فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعِي ...

فَقَالَتْ : وَلِمَ ؟ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ مَثَلَ بِأَخِي ، وَذَلِكَ

فِي اللَّهِ ...

(١) التمثيل : تشويهه جسد الميت .

(٢) إليك يا أُمَّهُ : ابتعدي يا أُمَّهُ .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : (خَلَّ سَبِيلَهَا يَا زُبَيْرُ) ؛
فَخَلَّى سَبِيلَهَا .

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا ... وَقَفَتْ صَفِيَّةُ
عَلَى أَحْيِهَا حَمْزَةً فَوَجَدَتْهُ قَدْ بُقِرَ (١) بَطْنُهُ ، وَأُخْرِجَتْ
كَبِدُهُ ، وَجُدِعَ أَنْفُهُ (٢) ، وَصُلِمَتْ أُذُنَاهُ (٣) ، وَشَوَّهَ وَجْهُهُ ،
فَاسْتَعْفَرَتْ لَهُ ، وَجَعَلَتْ تَقُولُ :

إِنَّ ذَلِكَ فِي اللَّهِ ...

لَقَدْ رَضِيْتُ بِقَضَاءِ اللَّهِ .

وَاللَّهُ لَأَصْبِرَنَّ ، وَلَأُحْتَسِبَنَّ (٤) إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

كَانَ ذَلِكَ مَوْقِفَ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَوْمَ
(أُحُدٍ) ...

(٤) لَأُحْتَسِبَنَّ : لأجعلن ذلك
المصاب في الله ولأطلبن
الأجر عليه منه .

(١) بُقِرَ بَطْنُهُ : شُقَّ بَطْنُهُ .
(٢) جُدِعَ أَنْفُهُ : قطع أنفه .
(٣) صُلِمَتْ أُذُنَاهُ : قطعت أذناه .

أَمَّا مَوْقُفُهَا يَوْمَ «الْحَنْدَقِ» فَلَهُ قِصَّةٌ مُثِيرَةٌ سُدَّاهَا
 الدَّهَاءُ وَالذِّكَاؤُ وَلُحْمَتُهَا^(١)، البَسَالَةُ وَالْحَزْمُ ...
 فَإِيْلِكَ^(٢) خَبَّرَهَا كَمَا وَعَثَهُ كُتُبُ التَّارِيخِ .

* * *

لَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَزَمَ عَلَى
 غَزْوَةٍ مِنَ الْعَزَوَاتِ أَنْ يَضَعَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي الْحُصُونِ
 خَشِيَةً أَنْ يَغْدِرَ بِالْمَدِينَةِ غَادِرٌ فِي غَيْبَةِ حُمَاتِهَا .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحَنْدَقِ جَعَلَ نِسَاءَهُ وَعَمَّتَهُ وَطَائِفَةٌ
 مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي حِصْنِ لِحْسَانَ بْنِ ثَابِتٍ^(٣) وَرِثَهُ
 عَنْ آبَائِهِ ، وَكَانَ مِنْ أَمْنَعِ حُصُونِ الْمَدِينَةِ مَنَاعَةً وَأَبْعَدِهَا
 مَنَالًا .

وَيَبْتَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُرَابِطُونَ عَلَى حَوَافِّ^(٤)

(١) السَّدَى : الخيوط الطويلة للنسيج ، واللحمة : الخيوط العرضية .

(٢) إليك خَبَّرَهَا : حَذَّ خَبَّرَهَا .

(٣) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ : شَاعِرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُدَافِعُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِشِعْرِهِ ،
 تُوفِّيَ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً قَضَى نِصْفَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَنِصْفَهَا فِي
 الْإِسْلَامِ .

(٤) حَوَافِّ الْحَنْدَقِ : أَطْرَافُهُ .

الْحَنَدَقِ فِي مُوَاجِهَةِ قُرَيْشٍ وَأَخْلَافِهَا ، وَقَدْ سُغِلُوا عَنِ
النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ بِمُنَازَلَةِ الْعَدُوِّ .

أَبْصَرْتُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَبْحاً يَتَحَرَّكُ فِي
عَثْمَةِ الْفَجْرِ ، فَأَزْهَفَتْ لَهُ السَّمْعَ ، وَأَاحَدَتْ إِلَيْهِ الْبَصَرَ ...
فَإِذَا هُوَ يَهُودِيٌّ أَقْبَلَ عَلَيَّ الْحِضْنِ ، وَجَعَلَ يُطِيفُ
بِهِ مُتَحَسِّساً أَخْبَارَهُ مُتَجَسِّساً عَلَيَّ مَنْ فِيهِ .

فَأَذْرَكَتُ أَنَّهُ عَيْنٌ (١) لِبَنِي قَوْمِهِ جَاءَ لِيَعْلَمَ أَفِي
الْحِضْنِ رِجَالٌ يُدَافِعُونَ عَمَّنْ فِيهِ ، أَمْ إِنَّهُ لَا يَضُمُّ بَيْنَ
جُدْرَانِهِ غَيْرَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ .

فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : إِنَّ يَهُودَ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضُوا
مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ عَهْدٍ وَظَاهَرُوا (٢) قُرَيْشاً
وَأَخْلَافَهَا عَلَيَّ الْمُسْلِمِينَ ...

وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُدَافِعُ عَنَّا ،

(١) عين لبني قومه : جاسوس لهم .
(٢) ظاهروا قريشاً : أعانوا قريشاً .

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مُرَابِطُونَ فِي نُحُورِ
الْعَدُوِّ ...

فَإِنْ اسْتَطَاعَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ يَنْقُلَ إِلَى قَوْمِهِ حَقِيقَةَ أَمْرِنَا
سَبَى الْيَهُودِ النِّسَاءَ وَاسْتَرْقُوا الذَّرَارِيَّ، وَكَانَتِ الطَّائِمَةُ^(٢)
عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ بَادَرَتْ إِلَى خِمَارِهَا فَلَقَّتْهُ عَلَى رَأْسِهَا ،
وَعَمَدَتْ إِلَى ثِيَابِهَا فَشَدَّتْهَا عَلَى وَسْطِهَا ، وَأَخَذَتْ عَمُوداً
عَلَى عَاتِقِهَا^(٣) ، وَنَزَلَتْ إِلَى بَابِ الْحِضْنِ فَشَقَّتْهُ فِي أَنَاةٍ
وَجِدْقٍ ، وَجَعَلَتْ تَرْقُبُ مِنْ خِلَالِهِ عَدُوَّ اللَّهِ فِي يَقْظَةٍ
وَخَذِيرٍ ، حَتَّى إِذَا أَيَقَنْتُ أَنَّهُ غَدَا فِي مَوْقِفٍ يُمَكِّنُهَا مِنْهُ ...
حَمَلَتْ عَلَيْهِ حَمَلَةً حَازِمَةً صَارِمَةً ، وَضَرَبَتْهُ بِالْعَمُودِ
عَلَى رَأْسِهِ فَطَرَحَتْهُ أَرْضاً ...

(١) فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ : فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ وَقِبَالَتِهِ .

(٢) الطَّائِمَةُ : الْمَصِيْبَةُ الْكَبِيرُ ، وَسَمِيَتْ الْقِيَامَةَ طَائِمَةً لِأَنَّهَا تَطْمُ كُلَّ شَيْءٍ ،
أَي تَعْمُ وَلَا تَتْرِكُ شَيْئًا .

(٣) عَلَى عَاتِقِهَا : عَلَى كَيْفِهَا .

ثُمَّ عَزَّزَتِ الصُّرْبَةَ الْأُولَى بِثَانِيَةٍ وَثَالِثَةٍ حَتَّى أَجْهَزَتْ
عَلَيْهِ ، وَأَخْمَدَتْ أَنْفَاسَهُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ ...

ثُمَّ بَادَرَتْ إِلَيْهِ فَأَحْتَرَّتْ رَأْسَهُ بِسِكِّينٍ كَانَتْ مَعَهَا ،
وَقَدَفَتْ بِالرُّأْسِ مِنْ أَعْلَى الْحِصْنِ ...

فَطَفِقَ يَتَدَخَّرُ عَلَى سُفُوحِهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ بَيْنَ أَيْدِي
الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَرَبِّصُونَ (١) فِي أَسْفَلِهِ .

فَلَمَّا رَأَى الْيَهُودُ رَأْسَ صَاحِبِهِمْ ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ :

قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ لِيَتْرَكَ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ
مِنْ غَيْرِ حُمَاةٍ ... ثُمَّ عَادُوا أَدْرَاجَهُمْ ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَقَدْ كَانَتْ مَثَلًا فَذَا لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ ...

رَبَّتْ وَحِيدَهَا فَأَحْكَمَتْ تَرْبِيَتَهُ ...

(١) يتربصون : ينتظرون ويرقبون .

وَأَصِيبَتْ بِشَقِيقِهَا فَأَحْسَنَتِ الصَّبْرَ عَلَيْهِ ...
 وَاخْتَبَرَتْهَا الشَّدَائِدُ فَوَجَدَتْ فِيهَا الْمَرْأَةَ الْحَازِمَةَ
 الْعَاقِلَةَ الْبَاسِلَةَ ...

ثُمَّ إِنَّ التَّارِيخَ كَتَبَ فِي أَنْصَعِ صَفَحَاتِهِ :
 إِنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ كَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ قَتَلَتْ
 مُشْرِكًا فِي الْإِسْلَامِ (*).

* * *

-
- (*) للاستزادة من أخبار صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ انظر :
- ١ - الإصابة : ٣٤٨/٤ (الترجمة) ٦٥٤ .
 - ٢ - السيرة النبوية لابن هشام : (انظر الفهارس) .
 - ٣ - المستطرف للأبشيبي : (انظر الفهرس) .
 - ٤ - حياة الصحابة : ١٥٤/١ (وانظر الفهارس) .
 - ٥ - الأغاني لأبي الفرج : (انظر الفهارس) .
 - ٦ - ذيل تاريخ الطبري : (انظر الفهارس) .
 - ٧ - أعلام النساء لكحالة : ٣٤١/٢ - ٣٤٦ .
 - ٨ - الكامل في التاريخ : (انظر الفهارس) .
 - ٩ - المعارف لابن قتيبة : (انظر الفهرس) .
 - ١٠ - الاستيعاب (هامش الإصابة) : ٣٤٥/٤ .
 - ١١ - أشد الغابة : ١٧٢/٧ .
 - ١٤ - سير أعلام النبلاء : ١٩٣/٢ .
 - ١٥ - سمط اللالكى : ١٨/١ .
 - ١٢ - فتوح البلدان للبلاذري .
 - ١٣ - الطبقات الكبرى : ٤١/٨ .
 - ١٦ - ابن كثير : ١٠٨/٤ .

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ

رَبِّحَانَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

« الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ]

قِصَّةُ حَيَاةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ فَضْلٌ مُشْرِقٌ مِنْ سِيرَةِ
الرَّسُولِ الْعَظِيمِ ﷺ ...

وَصُورَةٌ رَائِعَةٌ مِنْ صُورِ حَيَاةِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ الْكَرِيمِ ...
وَمَثَلٌ رَائِعٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ .

* * *

وُلِدَتْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا سَنَةَ بِنَاءِ
الْكَعْبَةِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِخَمْسِ سِنِينَ .

أَمَّا أُمُّهَا فَسَيِّدَةٌ رَزَانٌ جَمَعَتِ الْعَقْلَ الْحَصِيفَ (١)
إِلَى النَّسَبِ الشَّرِيفِ وَضَمَّتْ إِلَى ذَلِكَ الْخَلَائِقَ الْفَاضِلَةَ ،

(١) الحَصَافَةُ : الْحِكْمَةُ فِي الْعَقْلِ ، وَالْجُودَةُ فِي الرَّأْيِ .

وَالثَّرْوَةَ الطَّائِلَةَ ؛ فَكَانَتْ تُدْعَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالطَّاهِرَةِ ،
وَتُنْعَتُ بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ...

أَمَنْتُ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذْ كَفَرَ بِهِ النَّاسُ ، وَصَدَّقْتُهُ
إِذْ كَذَبَهُ النَّاسُ ، وَوَأَسْتُهُ بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَهُ النَّاسُ .

وَقَدْ حَبَا اللَّهُ هَذِهِ السَّيِّدَةَ الْوَقُورَ صَبَاحَةَ الْوَجْهِ مَعَ
مَا حَبَاهَا بِهِ مِنَ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ ، وَالْحَسَبِ الْأَيْبِلِ (١) ،
وَالْمَالِ الْجَزِيلِ ...

هَذِهِ هِيَ أُمُّ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ...

أُمًّا أَبُوهَا فَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَإِمَامِ
الْمُتَّقِينَ ...

فَأَعْظَمَ بِهَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ نَسْبًا ...

وَهَذَا الْأَبِ الْعَظِيمِ أَبًا .

* * *

كَانَتْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ آخِرَ أَوْلَادِ أَبِيهَا ، وَآخِرُ

(١) الحسب الأيبل : الأصيل القديم .

الأولادِ يَتَقَلَّبُ فِي أَعْطَافِ الْحَنَانِ وَالْحَدَبِ ...

وَيَدْرُجُ فِي أَكْتَاافِ الْحَفَاوَةِ وَالْحُبِّ ...

لِذَا كَانَتْ فَاطِمَةُ رِيحَانَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ... يَرْضَى إِذَا رَضِيََتْ وَيَسْخَطُ إِذَا سَخِطَتْ .

وَلَكِنَّ حَنَانَ الْأَبَوَيْنِ لَمْ يَحُلْ دُونَ تَعَهُدِ الْمَحْبُوبَةِ
الْأَثِيرَةِ بِالْتَرْتِيبَةِ وَإِعْدَادِهَا لِتَحْمِلِ الْمَسْئُولِيَّاتِ ...

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُومُ وَحْدَهَا بِصَنِيعِ بَيْتِهَا
لَا يُعِينُهَا فِي أَكْثَرِ أَيَّامِهَا أَحَدٌ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تُضْمَدُ جِرَاحَ
أَيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ .

وَلَمَّا بَلَغَتِ الزُّهْرَاءُ مَبْلَغَ النِّسَاءِ طَمَحَتْ إِلَيْهَا
الْأَنْظَارُ ؛ فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ خَطْبِهَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَرَدَّهُمَا
الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ رَدًّا كَرِيمًا ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يُرِيدُ
أَنْ يَخْصَّ بِهَا عَلِيًّا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ خَطَبَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ فَمَا أَسْرَعَ أَنْ اسْتَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى طَلِبِهِ ؛ فَخَرَّ عَلَيَّ سَاجِداً شُكْراً لِلَّهِ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ سُجُودِهِ قَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ :

(بَارِكُ اللَّهُ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ ، وَأَسْعَدَ جَدُّكُمْ^(١) وَأَخْرَجَ مِنْكُمْ الْكَثِيرَ الطَّيِّبَ) .

وَقَدْ شَهِدَ عَقْدَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ، وَطَلْحَةُ^(٢) ، وَالزُّبَيْرُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَعَدَدٌ يُمَاتِلُ عَدَدَهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ .
وَلَمَّا أَخَذَ الْقَوْمُ مَجَالِسَهُمْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِنِعْمَتِهِ ، الْمَغْبُودِ بِقُدْرَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْمُصَاهِرَةَ نَسَباً لَاحِقاً ، وَأَمراً مُفْتَرَضاً

(١) أَسْعَدَ جَدُّكُمْ : أَسْعَدَ حَظُّكُمْ ، وَجَعَلَكُمْ مِنَ الْمَرْضِيِّ عَنْهُمْ .
(٢) عُثْمَانُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُثَيْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ : انظُرْهُمَا فِي كِتَابِ « صُورٍ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمَوْلَفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

وَحُكْمًا عَادِلًا، وَخَيْرًا جَامِعًا، أَوْشَجَ (١) بِهَا الْأَرْحَامَ
وَأَلْزَمَهَا الْأَنْامَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا
وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (٢)

أَشْهَدُكُمْ أَنِّي زَوَّجْتُ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيِّ عَلَيَّ أَرْبَعِ مِائَةٍ
مِثْقَالِ فِضَّةٍ إِنْ رَضِيَ بِذَلِكَ عَلَيَّ السُّنَّةِ الْقَائِمَةِ، وَالْفَرِيضَةَ
الْوَاجِبَةَ ...

فَجَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهَا وَبَارَكَ، لَهَا، وَأَطَابَ
نَسْلَهَا ...

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ).

وَزُفَّتْ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا
وَمَا كَانَ لَهَا مِنْ جِهَازٍ غَيْرِ سَرِيرٍ مَشْرُوطٍ، وَوِسَادَةٍ مِنْ أَدَمَ
حَشْوُهَا لَيْفٌ، وَنَوْرَةٌ مِنْ أَدَمَ (٣)، وَسِقَايَ، وَمُنْخُلٍ،

(١) أَوْشَجَ بِهَا الْأَرْحَامَ: وَصَلَ بِهَا الْأَرْحَامَ.

(٢) سُورَةُ الْفُرْقَانِ: آيَةٌ ٥٤.

(٣) نَوْرَةٌ مِنْ أَدَمَ: أَيُّ لِنَاءٍ مِنَ الْجِلْدِ يَغْسَلُ فِيهِ.

وَمُنْشَفَةٍ ، وَقَدَحٍ ، وَرَحْوَانٍ وَجَرَّتَانِ .

* * *

لَمْ يُطِقِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ صَبْرًا عَلَى بُعْدِ الزُّهْرَاءِ
عَنْهُ ؛ فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُحَوِّلَهَا إِلَى جَوَارِهِ وَكَانَتْ تُجَاوِرُهُ
مَنَازِلَ لِحَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانَ فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَقَالَ :

إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُحَوِّلَ فَاطِمَةَ إِلَيْكَ ، وَهَذِهِ
مَنَازِلِي وَهِيَ أَقْرَبُ بُيُوتِ بَنِي « النَّجَّارِ » إِلَيْكَ ، وَإِنَّمَا
أَنَا وَمَالِي لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ :

لَلْمَالُ الَّذِي تَأْخُذُ مِنِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي تَدْعُ .
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(صَدَقْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ) .

ثُمَّ حَوَّلَ فَاطِمَةَ إِلَى جَوَارِهِ وَأَسْكَنَهَا مَثْرَلًا مِنْ بُيُوتِ
حَارِثَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

* * *

وَمُنْذُ اسْتَقَرَّتِ الزُّهْرَاءُ فِي جَوَارِ أَبِيهَا كَانَ يُلِمُّ بِبَيْتِهَا

كُلُّ صَبَاحٍ ، فَإِذَا أُذِّنَ لِلصُّبْحِ كَانَ يَأْخُذُ بِعَصَا دَتِّي بَابِ
بَيْتِهَا وَيَقُولُ :

(السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً) .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ
فَصَلَّى فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يُثْنِي بَيْتِ فَاطِمَةَ وَيُطِيلُ عِنْدَهَا
الْمُكْتَ ، ثُمَّ يَأْتِي بُيُوتَ نِسَائِهِ .

* * *

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى صَلَوَاتُ
اللَّهِ عَلَيْهِ خَرَجَ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي سَفَرٍ وَمَعَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
فَصَنَعَتْ فَاطِمَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا فِي غَيْبَتَيْهِمَا سِوَارَيْنِ
وَقِلَادَةً وَقُرْطَيْنِ وَوَضَعَتْ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ سِتَارَةً ، وَذَلِكَ
لِقُدُومِ أَبِيهَا وَرُؤُوسِهَا .

فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَوَقَفَ
أَصْحَابُهُ عَلَى الْبَابِ لَا يَدْرُونَ أَيُّقُونَ أَمْ يَنْصَرِفُونَ لِطُولِ
مُكْتِهِ عِنْدَهَا ، فَخَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَدْ عُرِفَ فِي وَجْهِهِ
الْغَضَبُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَدْرَكَتْ فَاطِمَةُ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَنَّهُ فَعَلَ
 ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنَ السَّوَارِينِ وَالْقِلَادَةِ وَالْقُرْطَيْنِ وَالسُّتْرِ ...
 فَتَزَعَّتْ قُرْطَيْهَا وَقِلَادَتَهَا وَسَوَارِيهَا وَأَنْزَلَتْ السُّتْرَ
 وَبَعَثَتْ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَتْ لِمَنْ حَمَلْتَهُ إِلَيَّاهَا :
 قُلْ لِلرَّسُولِ تَقْرَأُ عَلَيْكَ ابْنُتُكَ السَّلَامَ وَتَقُولُ لَكَ
 اجْعَلْ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ :

(قَدْ فَعَلْتَ - فِدَاهَا أَبُوهَا - لَيْسَتْ الدُّنْيَا مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَلَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
 الْخَيْرِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ) .

* * *

ثُمَّ إِنَّ بَيْتَ فَاطِمَةَ الزُّهْرَاءِ مَا لَبِثَ أَنْ سَعِدَ بِالذَّرِّيَّةِ
 الصَّالِحَةِ فَقَدْ رُزِقَ الْأَبْوَانَ الْكَرِيمَانَ كُلًّا مِنَ الْحَسَنِ ،
 وَالْحُسَيْنِ ، وَمُحْسِنٍ ...
 وَزَيْنَبَ ، وَأُمَّ كَلْثُومَ .

كَانَتْ فَرْحَةُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ بِهِمْ كَبِيرَةً ، فَقَدْ

رُوي أَنَّهُ لَمَّا وُلِدَ الْحَسَنُ سَمَّاهُ وَالِدَاهُ «حَرْبًا» ، فَجَاءَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :

(أُرُونِي ابْنِي ، مَا سَمَّيْتُمُوهُ ؟)

قَالُوا : حَرْبًا ...

قَالَ (بَلْ هُوَ حَسَنٌ) .

* * *

وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدَلُّ أَوْلَادَ فَاطِمَةَ
وَيَسْتَأْنِسُهُمْ وَيُدَاعِبُهُمْ وَيُرْقِصُهُمْ ، وَرُبَّمَا رَكِبَ الْوَاحِدَ
مِنْهُمْ عَلَى كَيْفِهِ وَهُوَ يُصَلِّي ...

فَيَتَأَنَّى فِي صَلَاتِهِ وَيُطِيلُ سُجُودَهُ لِكَيْ لَا يُرْخِزَهُ
عَنْ مَرْكَبِهِ .

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبِيتَ فِي
بَيْتِ فَاطِمَةَ حِينَئِذٍ بَعْدَ حِينَ ، وَيَتَوَلَّى خِدْمَةَ أَطْفَالِهَا بِنَفْسِهِ
وَأَبْوَاهُمْ قَاعِدَانِ .

فَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي سَمِعَ الْحَسَنَ يَسْتَشْفِي (١) ؛ فَقَامَ

(١) يَسْتَشْفِي : يَطْلُبُ السَّقْيَا .

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى قِزْبَةٍ فَجَعَلَ يَعْصِرُهَا فِي الْقَدَحِ فَمَدَّ
الْحُسَيْنُ يَدَهُ لِيَتَنَاوَلَ الْمَاءَ ؛ فَتَحَاهُ عَنْهُ وَبَدَأَ بِالْحَسَنِ ،
فَقَالَتْ فَاطِمَةُ :

كَأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّمَا اسْتَشَقَى أَوْلَى) .

* * *

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ يَدَيْهَا وَرَحَّبَ بِهَا وَأَجْلَسَهَا فِي
مَجْلِسِهِ ...

وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ لَهُ وَرَحَّبَتْ بِهِ وَأَخَذَتْ
بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهَا .

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ فَأَسْرَ إِلَيْهَا
فَبَكَتْ ... ثُمَّ أَسْرَ إِلَيْهَا فَضَحِكَتْ ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَرَى
ذَلِكَ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

كُنْتُ أَحْسِبُ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ فَضْلًا عَلَى النِّسَاءِ فَإِذَا

هِيَ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ بَيْنَمَا هِيَ تَبْكِي إِذَا هِيَ تَضْحَكُ .
فَلَمَّا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَتْهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ :
أَسْرَ إِلَيَّ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ مَيِّتٌ فَبَكَيْتُ ...
ثُمَّ أَسْرَ إِلَيَّ أَنِّي أَوْلُ أَهْلِ بَيْتِهِ لِحُوقًا بِهِ فَضَحِكْتُ .

* * *

وَلَمْ تَمُكِّثْ فَاطِمَةَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ طَوِيلًا فَلَحِقَتْ بِهِ بَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ ، قِيلَ إِنَّهَا سِتُّ
أَوْ ثَلَاثَةٌ أَوْ اثْنَانِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي الرُّوَايَاتِ .

فَفِي رَمَضَانَ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ لَبِثَ فَاطِمَةُ
الرَّهْرَاءُ نِدَاءَ رَبِّهَا وَفَرِحَتْ بِاللُّحُوقِ بِأَبِيهَا .

وَلَمَّا حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ تَوَلَّتْ أَمْرَ غَسْلِ نَفْسِهَا بِيَدِهَا
وَقَالَتْ لِصَاحِبَتَيْهَا أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ بَعْدَ أَنْ اغْتَسَلَتْ
كَأَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَغْتَسِلُ :

يَا أُمَّهُ إِنِّي بِيَتَابِي الْجُدُدِ فَلَبِسْتَهَا ...

ثُمَّ قَالَتْ :

قَدْ اغْتَسَلْتُ فَلَا يَكْشِفُنِّي لِي أَحَدٌ كَفَنًا ...
 ثُمَّ تَبَسَّمْتُ ، وَلَمْ تُرْ مُبْتَسِمَةً بَعْدَ وَفَاةٍ أَيْبَاهَا إِلَّا سَاعَةً
 فَارَقَتِ الْحَيَاةَ .

رَحِمَ اللَّهُ رِيحَانَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَحْمَةً وَاسِعَةً فَقَدْ
 زُفْتُ إِلَى عَلِيِّ فِي رَمَضَانَ ...

وَزُفْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فِي رَمَضَانَ أَيْضاً (*) .

* * *

(*) للاستزادة من أخبار فاطمة الزهراء انظر :

- ١ - سير أعلام النبلاء : ١١٨ / ٢ .
- ٢ - السيرة النبوية لابن هشام : (انظر الفهارس) .
- ٣ - تاريخ الطبري : (انظر الفهارس في العاشر) .
- ٤ - حياة الصحابة : (انظر الفهارس في الرابع) .
- ٥ - الإصابة : ٣٧٧ / ٤ (الترجمة) ٨٣٠ .
- ٦ - أعلام النساء لكحالة : ١٠٨ / ٤ .
- ٧ - الطبقات لابن سعد : ٢٥ / ٨ .
- ٨ - تهذيب التهذيب : ٤٤٠ / ١٢ .
- ٩ - الترغيب والترهيب : ٢٦٢ / ٣ .
- ١٠ - مسند أحمد : ١٤٩ / ٢ .
- ١١ - صفة الصفوة : ٩ / ٢ .
- ١٢ - أشد الغابة : ٢٢٠ / ٧ .
- ١٣ - حلية الأولياء : ٦٩ / ١ .
- ١٤ - الاستيعاب (بهامش الصحابة) : ٣٧٣ / ٤ .

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ

ذَاتُ التُّطَاقَيْنِ

«عُمِّرَتْ أَسْمَاءُ مِائَةَ عَامٍ وَلَمْ يَسْقُطْ لَهَا سِنٌّ
وَلَا ضِرْسٌ، وَلَمْ يَغِبْ مِنْ عَقْلِهَا شَيْءٌ»

[المؤرِّخون]

صَحَابِيَّتُنَا هَذِهِ جَمَعَتِ الْمَجْدَ مِنْ أَطْرَافِهِ كُلِّهَا ...
فَأَبُوهَا صَحَابِيٌّ، وَجَدُّهَا صَحَابِيٌّ، وَأُخْتُهَا صَحَابِيَّةٌ،
وَزَوْجُهَا صَحَابِيٌّ، وَابْنُهَا صَحَابِيٌّ ...
وَحَسْبُهَا (١) بِذَلِكَ شَرَفًا وَفَخْرًا ...
أَمَّا أَبُوهَا فَالْصُّدِّيقُ خَلِيلُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ فِي
حَيَاتِهِ، وَخَلِيفَتُهُ مِنْ بَعْدِ مَمَاتِهِ ...
وَأَمَّا جَدُّهَا فَأَبُو عَتِيقٍ وَالِدُ أَبِي بَكْرٍ ...

(١) حَسْبُهَا: يَكْفِيهَا.

وَأَمَّا أُخْتُهَا فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ الطَّاهِرَةُ الْمُبَرَّأَةُ ...

وَأَمَّا زَوْجُهَا فَحَوَارِيُّ^(١) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الزُّبَيْرُ بْنُ

العَوَامِ ...

وَأَمَّا ابْنَتُهَا فَعَبْدَةُ اللَّهِ بِنْتُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ

أَجْمَعِينَ ...

إِنِّهَا - بِإِيجَازٍ - أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ...

وَكَفَى ...

كَانَتْ أَسْمَاءُ مِنَ السَّابِقَاتِ إِلَى الْإِسْلَامِ، إِذْ لَمْ

يَتَقَدَّمْ عَلَيْهَا فِي هَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ غَيْرُ سَبْعَةِ عَشَرَ إِنْسَانًا

مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ .

وَقَدْ لُقِّبَتْ بِذَاتِ النُّطَاقِينَ لِأَنَّهَا صَنَعَتْ لِلرُّسُولِ

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلِأَيِّهَا يَوْمَ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ زَادًا،

وَأَعَدَّتْ لَهُمَا سِقَاءً^(٢) فَلَمَّا لَمْ تَجِدْ مَا تَرْبِطُهُمَا بِهِ شَقَّتْ

(١) الحواري: النصير، وحواريو الرُّسُل خاصة أنصارهم .

(٢) السِّقَاءُ: القرية وغَيْرُهَا مما يوضع فيه الماء .

نِطَاقَهَا^(١) شَقِيْنِ ، فَرَبَطْتُ بِأَحَدِهِمَا الْمِزْوَدَ^(٢) وَبِالثَّانِي
السَّقَاءَ ...

فَدَعَا لَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُبَدِّلَهَا اللَّهُ
مِنْهُمَا نِطَاقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ ...

فَلَقَّبَتْ لِذَلِكَ بِذَاتِ النُّطَاقَيْنِ .

* * *

تَزَوَّجَ بِهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، وَكَانَ شَابًّا مُزْمِلًا^(٣)
لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ يَنْهَضُ بِخِدْمَتِهِ ، أَوْ مَالٌ يُوسِّعُ بِهِ عَلَى عِيَالِهِ
غَيْرَ فَرَسٍ اقْتَنَاهَا .

فَكَانَتْ لَهُ نِعْمَ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ ، تَخْدُمُهُ وَتَسْوِسُ
فَرَسَهُ وَتَرْعَاهُ وَتَطْحَنُ النَّوَى لِعَلْفِهِ ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ
فَعْدًا مِنْ أَعْنَى أَغْنِيَاءِ الصَّحَابَةِ .

• وَلَمَّا أُتِيحَ لَهَا أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِرَارًا بِدِينِهَا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَانَتْ قَدْ أَتَمَّتْ حَمْلَهَا بِابْنَتِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) النُّطَاقُ : مَا تَشُدُّ بِهِ الْمَرْأَةُ وَسَطَهَا .

(٢) الْمِزْوَدُ : كَيْسٌ يُوضَعُ فِيهِ الزَّرَادُ لِلْمَسَافِرِ . (٣) مُزْمِلًا : فَقِيرًا .

الزُبَيْرِ فَلَمْ يَمْنَعَهَا ذَلِكَ مِنْ تَحْمِيلِ مَشَاقِّ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ ،
فَمَا إِنْ بَلَغَتْ « قُبَاءً » (١) حَتَّى وَضَعَتْ وَلِيدَهَا ...

فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ وَهَلَّلُوا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ
لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الْمَدِينَةِ .

فَحَمَلَتْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ ،
فَأَخَذَ شَيْئًا مِنْ رِيقِهِ وَجَعَلَهُ فِي فَمِ الصَّبِيِّ ، ثُمَّ حَنَكَهُ (٢)
وَدَعَا لَهُ ...

فَكَانَ أَوَّلَ مَا دَخَلَ فِي جَوْفِهِ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَقَدْ اجْتَمَعَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ خَصَائِلِ الْخَيْرِ
وَشَمَائِلِ النُّبْلِ ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ مَا لَمْ يَجْتَمِعَ إِلَّا لِلْقَلِيلِ
النَّادِرِ مِنَ الرِّجَالِ .

فَقَدْ كَانَتْ مِنَ الْجُودِ بِحَيْثُ يُضْرَبُ بِجُودِهَا
الْمَثَلُ .

(١) قباء : قرية على بعد ميلين من المدينة .

(٢) حنكه : مضغ شَيْئًا ووضعه في حنكه .

حَدَّثَ ابْنُهَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ :

مَا رَأَيْتُ امْرَأَتَيْنِ قَطُّ أَجْوَدَ مِنْ خَالَتِي عَائِشَةَ وَأُمِّي
أَسْمَاءَ ، لَكِنَّ جُودَهُمَا مُخْتَلِفٌ ...

أَمَّا خَالَتِي فَكَانَتْ تَجْمَعُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ حَتَّى إِذَا
اجْتَمَعَ عِنْدَهَا مَا يَكْفِي ؛ قَسَمَتْهُ بَيْنَ ذَوِي الْحَاجَاتِ ...
وَأَمَّا أُمِّي فَكَانَتْ لَا تُمْسِكُ (١) شَيْئًا إِلَى الْعَدِ ...

* * *

وَكَانَتْ أَسْمَاءُ إِلَى ذَلِكَ عَاقِلَةً تُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فِي
الْمَوَاقِفِ الْحَرِجَةِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ الصَّدِيقُ مُهَاجِرًا بِصُحْبَةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَمَلَ مَعَهُ مَالَهُ كُلَّهُ ، وَمِقْدَارُهُ سِتَّةُ آلَافٍ
دِرْهَمٍ ، وَلَمْ يَتْرِكْ لِعِيَالِهِ شَيْئًا ...

فَلَمَّا عَلِمَ وَالِدُهُ أَبُو قُحَافَةَ بِرَحِيلِهِ - وَكَانَ مَا يَزَالُ
مُشْرِكًا - جَاءَ إِلَى بَيْتِهِ وَقَالَ لِأَسْمَاءَ :

(١) لَا تُمْسِكُ شَيْئًا : لَا تَسْتَبْقِي شَيْئًا .

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ بَعْدَ أَنْ فَجَعَكُمْ
بِنَفْسِهِ ...

فَقَالَتْ لَهُ :

كَلَّا يَا أَبَتِ إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا مَالًا كَثِيرًا ، ثُمَّ أَخَذَتْ
حَصِي وَوَضَعْتَهُ فِي الْكُوَّةِ^(١) ، الَّتِي كَانُوا يَضْعُونَ فِيهَا
الْمَالَ ، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ ثُوبًا ، ثُمَّ أَخَذَتْ بِيَدِ جَدِّهَا - وَكَانَ
مَكْفُوفَ الْبَصْرِ - وَقَالَتْ :

يَا أَبَتِ ، انظُرْ كَمْ تَرَكَ لَنَا مِنَ الْمَالِ .

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ :

لَا بَأْسَ ... إِذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا كُلُّهُ فَقَدْ أَحْسَنَ .

وَقَدْ أَرَادَتْ بِذَلِكَ أَنْ تُسَكِّنَ نَفْسَ الشَّيْخِ ،

وَأَلَّا تَجْعَلَهُ يَبْدُلُ^(٢) لَهَا شَيْئًا مِنْ مَالِهِ ...

(١) الكُوَّةُ : تجويف في الحائط ، أو نافذة صغيرة .

(٢) يبذل لها : يعطيها .

ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَكْرَهُ أَنْ تَجْعَلَ لِمُشْرِكٍ عَلَيْهَا
يَدًا (١) حَتَّىٰ لَوْ كَانَ جَدُّهَا ...

* * *

وَإِذَا نَسِيَ التَّارِيخَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ مَوَاقِفَهَا
كُلَّهَا ، فَإِنَّهُ لَنْ يَنْسَى لَهَا رَجَاحَةَ عَقْلِهَا ، وَشِدَّةَ حَزْمِهَا ،
وَقُوَّةَ إِيمَانِهَا وَهِيَ تَلْقَى وَلَدَهَا عَبْدَ اللَّهِ اللِّقَاءَ الْأَخِيرَ .

وَذَلِكَ أَنَّ ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ بُوِيعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ
بَعْدَ مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، وَدَانَتْ لَهُ الْحِجَازُ وَمِصْرُ
وَالْعِرَاقُ وَخُرَاسَانُ وَأَكْثَرُ بِلَادِ الشَّامِ .

لَكِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ مَا لَبِثُوا أَنْ سَيَّرُوا لِحَرْبِهِ جَيْشًا لَجِبًا (٢)
بِقِيَادَةِ « الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ » ...

فَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعَارِكٌ طَاحِنَةٌ أَظْهَرَ فِيهَا ابْنُ
الزُّبَيْرِ مِنْ ضُرُوبِ الْبَطُولَةِ مَا يَلِيقُ بِفَارِسٍ كَمِيِّ (٣) مِثْلِهِ .
غَيْرَ أَنْ أَنْصَارَهُ جَعَلُوا يَنْقُضُونَ (٤) عَنْهُ شَيْئًا فَشَيْئًا ؛

(١) اليَدُ : الصُّنِيعَةُ وَالجِنَّةُ وَالْمَعْرُوفُ . (٣) الكَمِيُّ : البَطَلُ الشُّجَاعُ .
(٢) جَيْشًا لَجِبًا : جَيْشًا كَثِيفًا جَرَارًا . (٤) يَنْقُضُونَ عَنْهُ : يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ .

فَلَجَأَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَاحْتَمَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي
حِمَى الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ ...

* * *

وَقُبَيْلَ مَضْرَعِهِ بِسَاعَاتٍ دَخَلَ عَلَى أُمِّهِ أَسْمَاءَ
- وَكَانَتْ عَجُوزًا فَانِيَةً قَدْ كُفَّ بَصَرُهَا - فَقَالَ :
السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أُمَّهُ (١) وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

فَقَالَتْ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا عَبْدَ اللَّهِ ...

مَا الَّذِي أَقَدَمَكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، وَالصُّخُورُ الَّتِي
تَقْدِفُهَا مَنْجَنِيقاتُ (٢) الْحَجَّاجِ عَلَى جُنُودِكَ فِي الْحَرَمِ نَهْرُ
دُورِ مَكَّةَ هَرًّا ١٢

قَالَ : جِئْتُ لِأَسْتَشِيرَكَ .

قَالَتْ : تَسْتَشِيرُنِي !! ... فِي مَاذَا ١٣

قَالَ : لَقَدْ خَذَلَنِي النَّاسُ وَانْحَازُوا عَنِّي رَهْبَةً مِّنْ
الْحَجَّاجِ أَوْ رَغْبَةً بِمَا عِنْدَهُ ...

(١) يَا أُمَّهُ : يَا أُمَّاه .

(٢) مَنْجَنِيقات : جمع منجنيق ، وهو آلة حربية كانت تُقذف بها الصخور
ونحوها عَلَى المَعَالِقِ وَالْحِصُونِ .

حَتَّى أَوْلَادِي وَأَهْلِي انْفَضُوا (١) عَنِّي ، وَلَمْ يَتَّقْ مَعِي
إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا مِنْ رِجَالِي ، وَهُمْ مَهْمَا عَظُمَ جَلْدُهُمْ (٢) فَلَنْ
يَصْبِرُوا إِلَّا سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ...

وَرُسُلُ بَنِي أُمَيَّةَ يُفَاوِضُونَنِي عَلَى أَنْ يُعْطُونِي
مَا شِئْتُ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا أَلْقَيْتُ السَّلَاحَ وَبَايَعْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ
ابْنَ مَرْوَانَ ، فَمَا تَرَيْنَ ؟

فَعَلَا صَوْتُهَا وَقَالَتْ :

السُّأْنُ شَأْنُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ...
فَإِنْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ ، وَتَدْعُو إِلَى حَقٍّ ،
فَاصْبِرْ وَجَالِدْ كَمَا صَبَرَ أَصْحَابُكَ الَّذِينَ قُتِلُوا تَحْتَ
رَأْيِكَ ...

وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ الْعَبْدُ أَنْتَ ...
أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكَتَ رِجَالَكَ .
قَالَ : وَلَكِنِّي مَقْتُولٌ الْيَوْمَ لَا مَحَالَةَ .

(٢) جلدُهم : صبرُهم واحتمالُهم .

(١) انفضوا : تفرقوا .

قَالَتْ : ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُسَلِّمَ نَفْسَكَ لِلْحِجَابِ
مُخْتَاراً ، فَيَلْعَبَ بِرَأْسِكَ غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ .

قَالَ : لَسْتُ أَخْشَى الْقَتْلَ ، وَإِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يُمَثَّلُوا

بِي .

قَالَتْ : لَيْسَ بَعْدَ الْقَتْلِ مَا يَخَافُهُ الْمَوْتُ ، فَالْشَّاءُ
الْمَذْبُوحَةُ لَا يُؤْلَمُهَا السَّلْخُ ...

فَأَشْرَقَتْ أَسَارِيرُ^(١) وَجْهِهِ وَقَالَ :

بُورِكَتِ مِنْ أُمَّ ، وَبُورِكَتِ مَنَايِكَ^(٢) الْجَلِيلَةُ ؛ فَأَنَا
مَا جِئْتُ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَسْمَعَ مِنْكَ
مَا سَمِعْتُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّي مَا وَهَنْتُ وَلَا ضَعُفْتُ ،
وَهُوَ الشَّهِيدُ عَلَيَّ أَنَّي مَا قُمْتُ بِمَا قُمْتُ بِهِ حُبًّا بِالدُّنْيَا
وَزِينَتِهَا ، وَإِنَّمَا غَضَباً لِلَّهِ أَنْ تُسْتَبَاحَ مَحَارِمُهُ ...

وَهَآنَذَا مَا ضِيَ إِلَى مَا تُحِبِّينَ ، فَإِذَا أَنَا قُتِلْتُ
فَلَا تَحْزَنِي عَلَيَّ وَسَلِّمِي أَمْرِكَ لِلَّهِ ...

(١) أساريرُ وجهه : محاسنُ وجهه .

(٢) منايقك : خلالك وخصالك وشمالك .

قَالَتْ : إِنَّمَا أَحْزَنُ عَلَيْكَ لَوْ قُتِلْتَ فِي بَاطِلٍ .

قَالَ : كُونِي عَلَيَّ ثِقَةً بِأَنَّ ابْنَكَ لَمْ يَتَّعَمِدْ إِثْبَانَ مُنْكَرٍ قَطُّ ، وَلَا عَمِلَ بِفَاحِشَةٍ قَطُّ ، وَلَمْ يَجُزْ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَغْدُرْ فِي أَمَانٍ ، وَلَمْ يَتَّعَمِدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهِدٍ ^(١) ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ عِنْدَهُ آثَرٌ ^(٢) مِنْ رِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

لَا أَقُولُ ذَلِكَ تَزْكِيَةً لِنَفْسِي ؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنِّي بِي ، وَإِنَّمَا قُلْتُهُ لِأَدْخِلَ الْعِرَاءَ ^(٣) عَلَيَّ قَلْبِكَ .

فَقَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ عَلَيَّ مَا يُحِبُّ وَأُحِبُّ ...

إِقْتَرَبَ مِنِّي يَا بَنِيَّ لِأَتَشَمَّ رَائِحَتَكَ وَأَلْمَسَ جَسَدَكَ فَقَدْ يَكُونُ هَذَا آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ .

فَأَكَبَّ عَبْدُ اللَّهِ عَلَيَّ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا يُوسِعُهُمَا ^(٤) لِنَمَاءٍ ، وَأَجَالَتْ هِيَ أَنْفَهَا فِي رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَعُنُقِهِ تَتَشَمَّمُهُ وَتُقَبِّلُهُ ...

(٣) العراء : الضئير .

(١) المعاهد : الذمي .

(٤) يوسعها لئماً : يملؤها تقبيلاً .

(٢) آثر : أفضل .

وَأَطْلَقَتْ يَدَيْهَا تَتَلَمَّسُ جَسَدَهُ ، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ
رَدَّتُهُمَا عَنْهُ وَهِيَ تَقُولُ :

مَا هَذَا الَّذِي تَلْبَسُهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ !؟

قَالَ : دِرْعِي .

قَالَتْ : مَا هَذَا يَا بُنَيَّ لِيَأْسُ مَنْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ .

قَالَ :

إِنَّمَا لَبِسْتُهَا لِأَطِيبَ حَاظِرِكَ ، وَأُسْكِنَ قَلْبِكَ .

قَالَتْ :

إِنزَعَهَا عَنْكَ ، فَذَلِكَ أَشَدُّ لِحِمِيَّتِكَ (١) وَأَقْوَى
لِوَثْبَتِكَ ، وَأَخْفُ لِحَرَكَتِكَ ...

وَلَكِنْ الْبَسْ بَدَلًا مِنْهَا سَرَائِيلَ مُضَاعَفَةً (٢) ، حَتَّى
إِذَا صُرِغْتَ لَمْ تَتَكَشِفْ عَوْرَتَكَ .

* * *

(١) أَشَدُّ لِحِمِيَّتِكَ : أَقْوَى لِتَخَوُّتِكَ وَشَجَاعَتِكَ .

(٢) مُضَاعَفَةٌ : طَوِيلَةٌ .

نَزَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ دِرْعَهُ ، وَشَدَّ عَلَيْهِ سَرَوِيلَهُ ،
وَمَضَى إِلَى الْحَرَمِ لِمُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ وَهُوَ يَقُولُ :

لَا تَفْتَرِي عَنِ الدُّعَاءِ لِي يَا أُمَّهُ .

فَرَفَعَتْ كَفَّيْهَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ :

اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ قِيَامِهِ وَشِدَّةَ نَحْيِهِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ
وَالنَّاسِ نِيَامًا ...

اللَّهُمَّ ارْحَمْ جُوعَهُ وَظَمَأَهُ فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ
وَهُوَ صَائِمٌ ...

اللَّهُمَّ ارْحَمْ بَرَّهُ بِأَبِيهِ وَأُمَّهُ ...

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَلَمْتُهُ لِأَمْرِكَ ، وَرَضَيْتُ بِمَا قَضَيْتَ
لَهُ ؛ فَأَثْبِنِي عَلَيْهِ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ ...

لَمْ تَعْرُوبْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الزُّبَيْرِ قَدْ لَحِقَ بِجِوَارِ رَبِّهِ .

وَلَمْ يَمُضِ عَلَى مَضْرَعِهِ غَيْرُ بَضْعَةِ عَشْرٍ يَوْمًا

إِلَّا كَانَتْ أُمُّهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قَدْ لَحِقَتْ بِهِ ...
 وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْعُمُرِ مِائَةَ عَامٍ ، وَلَمْ يَسْقُطْ لَهَا سِنَّ
 وَلَا ضِرْسٌ ، وَلَمْ يَغِبْ مِنْ عَقْلِهَا شَيْءٌ (*) .

* * *

-
- (٥) للاستزادة من أخبار أسماء بنت أبي بكر انظر:
- ١ - الإصابة : ٢٢٩/٤ (الترجمة) ٤٦ .
 - ٢ - أشد الغابة : ٣٩٢/٥ - ٣٩٣ .
 - ٣ - الاستيعاب (علی هامش الإصابة) : ٢٣٢/٤ .
 - ٤ - تهذيب التهذيب : ٣٩٧/١٢ .
 - ٥ - صفة الصفوة : ٣١/٢ - ٣٢ .
 - ٦ - شذرات الذهب : ٨٠/١ .
 - ٧ - تاريخ الإسلام للذهبي : ١٣٣/٣ - ١٣٧ .
 - ٨ - البداية والنهاية : ٣٤٦/٨ .
 - ٩ - أعلام النساء لكحالة : ٣٦/١ .
 - ١٠ - عبد الله بن الزبير من سلسلة أعلام العرب للدكتور الخربوطلي .
 - ١١ - سير أعلام النبلاء : ٢٠٨/٢ .
 - ١٢ - قلائد الجمان : ١٤٩ .
 - ١٣ - النجوم الزاهرة : ١٨٩/١ .
 - ١٤ - المُخَبَّر : ٢٢ ، ٥٤ ، ١٠٠ .

نَسِيَةُ الْمَازِنِيَّةِ

« مَا أَنْصَتُ يَوْمَ أُحُدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا
إِلَّا وَرَأَيْتُ أُمَّ عُمَارَةَ تُقَاتِلُ دُونِي »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ]

« أَنْتُمْ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْعَقَبَةِ فِي
أَخِيرِ الْهَزِيحِ (١) الْأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ » .

أَسْرَ مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ
مُسْلِمِينَ « يَثْرَبَ » ، فَسَرَى الْخَبْرُ بَيْنَهُمْ سَرِيانَ النَّسِيمِ فِي
سُرْعَةٍ ، وَخَفَّةٍ ، وَهُدُوءٍ .

وَأُحِيطَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ تَسَلَّلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ ،
وَأَنْدَسُوا بَيْنَ جُمُوعِ حُجَّاجِ الْمُشْرِكِينَ الْوَافِدِينَ عَلَى مَكَّةَ
مِنْ كُلِّ صَوْبٍ .

وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ فَاسْتَسَلَمَ حُجَّاجُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى
الْكَرَى (٢) ...

(١) الهزيع الأول من الليل : الثلث الأول منه . (٢) الكرى : النوم .

وَجَعَلُوا يُغْطُونَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ بَعْدَ يَوْمٍ جَاهِدٍ
نَاصِبٍ (١) قَضُوهُ فِي التَّطَوَّافِ حَوْلَ الْأَوْثَانِ ...
وَالذَّبْحِ لِلْأَضْنَامِ ...

لَكِنَّ أَصْحَابَ مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ مِنْ مُسْلِمِي
« يَثْرَبَ » لَمْ يَغْمَضْ لَهُمْ جَفْنَ ...

وَكَيفَ لِيُجْفُونَهُمْ أَنْ تَغْمَضُ !؟

وَقُلُوبُهُمْ تَخْفِقُ بَيْنَ فَرْحَةٍ بِاللِّقَاءِ الَّذِي قَطَعُوا مِنْ
أَجْلِهِ الْفَيَافِي (٢) وَالْقِفَارِ (٣) وَأَفْعِدْتُهُمْ تَكَادُ تَطِيرُ مِنْ بَيْنِ
ضُلُوعِهِمْ شَوْقًا لِرُؤْيَةِ نَبِيِّهِمُ الْحَبِيبِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ .

فَقَدْ آمَنَ بِهِ أَكْثَرُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْعَدُوا بِلُقْيَاهُ ...

وَتَعَلَّقُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ أَعْيُنُهُمْ بِمَرَاهُ ...

* * *

وَفِي آخِرِ الْهَزِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،

(١) جاهد ناصب : مُثِيب بسبب ما بذل فيه من جهد .

(٢) الْفَيَافِي : الصحاري الواسعة . (٣) الْقِفَار : الأراضى الجرداء .

وَعِنْدَ « الْعَقَبَةِ » فِي « مِنَى » تَمَّ اللَّقَاءُ الْكَبِيرُ فِي نَجْوَةٍ (١)
مِنْ قَرَيْشٍ ...

فَلَقَدْ تَقَدَّمَ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى صَلَوَاتُ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدَيْهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ مُبَايَعِينَ
عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ ...

وَلَمَّا انْتَهَى الرَّجَالُ مِنَ الْبَيْعَةِ تَقَدَّمَتِ امْرَأَتَانِ فَبَايَعَتَا
عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ الرَّجَالُ ...

وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ مُصَافِحَةٍ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُصَافِحُ

النِّسَاءَ .

وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَى هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ تُعْرَفُ بِأُمِّ

مَنْبِيعٍ (٢) ...

(١) النجوة: البعد عن الأمر حتى يُظن أنه لن يلحقه أحد.

(٢) أم منبِيع: هي أسماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر الأنصارية السلمية،
أم الصحابي مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ.

أَمَّا الْأُخْرَىٰ فَهِيَ نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ الْمُكَنَّاةُ
بِأُمِّ عُمَارَةَ .

* * *

عَادَتْ أُمُّ عُمَارَةَ إِلَى « يَثْرِبَ » فَرِحَتْ بِمَا أَكْرَمَهَا اللَّهُ
بِهِ مِنْ لِقَاءِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ .

عَاقِدَةُ الْعَزْمِ عَلَى الْوَفَاءِ بِشُرُوطِ الْبَيْعَةِ ...

ثُمَّ مَضَتْ الْأَيَّامَ سِرَاعًا ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ « أُحُدِ » ،
وَكَانَ لِأُمِّ عُمَارَةَ فِيهِ شَأْنٌ وَأَيُّ شَأْنٍ ؟!

خَرَجَتْ أُمُّ عُمَارَةَ إِلَى « أُحُدِ » تَحْمِلُ سِقَاءَهَا
لِتَرْوِيَ ظَمَأَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَمَعَهَا لِفَائِقُهَا لِتُضَمِّدَ (١) جِرَاحَهُمْ ...

وَلَا عَجَبَ فَقَدْ كَانَ لَهَا فِي الْمَعْرَكَةِ زَوْجٌ وَثَلَاثَةٌ

أَفِيدَةٌ :

هُمُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) تُضَمِّدُ : تداوي جراحهم وتربطها بالضماد ، وهو رباط الجرح .

وَوَلَدَاهَا حَبِيبٌ^(١)، وَعَبْدُ اللَّهِ ...

وَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلَى إِخْوَتِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ
الذَّائِدِينَ^(٢) عَنِ دِينِ اللَّهِ الْمُتَنَافِحِينَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ .

ثُمَّ كَانَ مَا كَانَ يَوْمَ «أُحُدٍ» ...

فَلَقَدْ رَأَتْ أُمَّ عُمَارَةَ بِعَيْنَيْهَا كَيْفَ تَحَوَّلَ نَصْرُ
الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَزِيمَةٍ كُبْرَى ...

وَكَيْفَ أَخَذَ الْقَتْلُ يَشْتَدُّ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ
فَيَتَسَاقَطُونَ عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ شَهِيداً إِثْرَ شَهِيدٍ ...

وَكَيْفَ زُلْزِلَتْ الْأَقْدَامُ ، فَتَفَرَّقَ الرَّجَالُ عَنِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا عَشْرَةٌ أَوْ نَحْوُ مِنْ عَشْرَةٍ ...

مِمَّا جَعَلَ صَارِخَ الْكُفَّارِ يُنَادِي :

لَقَدْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ ... لَقَدْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ ...

(١) حبيب بن زيد: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف،
الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.
(٢) الذائدين: المدافعين عن دين الله.

عِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَتْ أُمُّ عُمَارَةَ سِقَاءَهَا ، وَانْبَرَتْ إِلَى
الْمَعْرَكَةِ كَالْتَّمِيرَةِ الَّتِي قُصِدَ أَشْبَالُهَا بِشَرٍّ ...

وَلَتَتْرُكُ لِأُمِّ عُمَارَةَ نَفْسَهَا الْحَدِيثَ عَنْ هَذِهِ
اللَّحْظَاتِ الْحَاسِمَاتِ ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ
تَصْوِيرَهَا بِدِقَّةٍ وَصِدْقٍ .

قَالَتْ أُمُّ عُمَارَةَ :

خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَى « أَحَدٍ » وَمَعِيَ سِقَاءٌ أُسْقِي
مِنهُ الْمُجَاهِدِينَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
وَالدَّوْلَةُ وَالرِّيْحُ (١) لَهُ وَلَمَنْ مَعَهُ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا فِي نَفْرِ قَلِيلٍ مَا يَزِيدُونَ عَلَيَّ الْعَشْرَةَ ...

فَمِلْتُ إِلَيْهِ أَنَا وَابْنِي وَزَوْجِي ...

وَأَحْطْنَا بِهِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمِعْصَمِ وَجَعَلْنَا نَدْوُدُ عَنْهُ
بِسَائِرِ مَا نَعْلِكُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَسِلَاحٍ ...

(١) الدَّوْلَةُ : النصر والغلب ، والريح : القوة .

وَرَأَى الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ وَلَا تَزَسَّ مَعِيَ أَقْبَىٰ بِهِ
نَفْسِي مِنْ ضَرْبَاتِ الْمُشْرِكِينَ .

ثُمَّ أَبْصَرَ رَجُلًا مُؤَلِّيًا^(١) وَمَعَهُ تُرْسٌ فَقَالَ لَهُ :

(الْقِي تَزَسَّكَ إِلَيَّ مِنْ يُقَاتِلُ) فَأَلْقَى الرَّجُلُ تَزْسَهُ

وَمَضَى ...

فَأَخَذَتْهُ وَجَعَلَتْ أَتْتَرَسُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ .

وَمَا زِلْتُ أَضَارِبُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالسَّيْفِ ...

وَأَرْمِي دُونَهُ بِالْقَوْسِ حَتَّىٰ أَعْجَزْتَنِي الْجِرَاحُ .

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ أَقْبَلَ «ابْنُ قَمَيْة» كَالْجَمَلِ

الْهَائِجِ وَهُوَ يَصِيحُ :

أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟

دُلُونِي عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ...

فَاعْتَرَضْتُ سَبِيلَهُ أَنَا وَمُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، فَصَرَخَ

مُضْعَبًا بِسَيْفِهِ وَأَزْدَاهُ قَتِيلًا ...

(١) مؤلِّياً: فاؤا مارياً.

ثُمَّ ضَرَبْتَنِي ضَرْبَةً خَلَقْتَ فِي عَاتِقِي جُرْحًا غَائِرًا ...
فَضْرَبْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرْبَاتٍ ، وَلَكِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ كَانَتْ
عَلَيْهِ دِرْعَانِ (١) ...

ثُمَّ أَتَبَعْتُ نَسِيئَةَ الْمَازِينَةِ تَقُولُ :

وَفِيمَا كَانَ ابْنِي يُنَاضِلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَرْبَهُ
أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ ضَرْبَةً كَادَتْ تَقْطَعُ عَضُدَهُ ...

وَجَعَلَ الدَّمُ يَتَفَجَّرُ مِنْ جُرْحِهِ الْغَائِرِ ...

فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ ، وَضَمَدْتُ جُرْحَهُ ، وَقُلْتُ لَهُ :

انْهَضْ يَا بُنَيَّ وَجَالِدِ (٢) الْقَوْمَ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ

وَقَالَ :

(وَمَنْ يُطِيقُ مَا تُطِيقِينَ يَا أُمَّ عُمَارَةَ) ١٩

(١) الدرع : ثوب من الحديد يلبسه المحارب ليحمي صدره .

(٢) المجالدة : المضاربة بالسيف .

ثُمَّ أَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي ضَرَبَ ابْنِي ، فَقَالَ الرَّسُولُ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(هَذَا ضَارِبُ ابْنِكَ يَا أُمَّ عُمَارَةَ)

فَمَا أَسْرَعَ أَنْ اعْتَرَضْتُ سَبِيلَهُ وَضَرَبْتُهُ عَلَى سَاقِهِ
بِالسَّيْفِ ؛ فَسَقَطَ صَرِيحاً عَلَى الْأَرْضِ ...

فَأَقْبَلْنَا عَلَيْهِ نَتَعَاوَرُهُ^(١) بِالسُّيُوفِ وَنَطَعْنَاهُ بِالرَّمَاكِ
حَتَّى أَجْهَزْنَا^(٢) عَلَيْهِ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ ﷺ
مُبْتَسِماً وَقَالَ :

(لَقَدْ اقْتَضَصْتِ مِنْهُ يَا أُمَّ عُمَارَةَ ...

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَكَ بِهِ ...

وَأَرَاكَ تَأْرَكَ بِعَيْنِكَ) .

* * *

لَمْ يَكُنْ وَلَدًا أُمَّ عُمَارَةَ أَقْلُ شَجَاعَةً وَبَدَلًا مِنْ أُمَّهَامَا
وَأَبِيهَامَا ، وَلَا أَدْنَى تَضْحِيَّةٍ وَفِدَاءٍ مِنْهُمَا ...

(١) نتعاوره : نضربه واحداً بعد آخر .

(٢) أجهزنا عليه : قضينا عليه وأهلكناه .

فَالْوَلَدُ سِرُّ أُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصُورَةٌ صَادِقَةٌ عَنْهُمَا .

حَدَّثَ ابْنُهَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ :

شَهِدْتُ « أَحَدًا » مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ
النَّاسُ عَنْهُ دَنَوْتُ مِنْهُ أَنَا وَأُمِّي نَذِبُ (١) عَنْهُ ، فَقَالَ :

(ابْنُ أُمِّ عُمَارَةَ ؟)

قُلْتُ : نَعَمْ

قَالَ : (اِزِمِ ...)

فَرَمَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِحَجَرٍ فَوَقَعَ
عَلَى الْأَرْضِ ، فَمَا زِلْتُ أَعْلُوهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى جَعَلْتُ عَلَيْهِ
مِنْهَا حِمْلًا ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيَبَسِّمُ ...

وَحَانَتْ مِنْهُ الْبِقَاعَةُ فَرَأَى جُرْحَ أُمِّي عَلَى عَاتِقِهَا

يَتَصَبَّبُ مِنْهُ الدَّمُ فَقَالَ :

(أُمَّكَ ... أُمَّكَ ...)

اغْصِبْ جُرْحَهَا . بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ بَيْتِ ...

(١) نَذِبٌ : نَدَّافِعٌ .

لَمَقَامِ أُمِّكَ خَيْرٌ مِنْ مَقَامِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ...

رَجِمَكُمُ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتِ).

فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ أُمِّي وَقَالَتْ :

اذْعُ اللَّهُ لَنَا أَنْ نُرَافِقَكَ فِي الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُم رُفَقَائِي فِي الْجَنَّةِ)

فَقَالَتْ أُمِّي :

مَا أَبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ مَا أَصَابَنِي فِي الدُّنْيَا .

ثُمَّ عَادَتْ أُمُّ عُمَارَةَ مِنْ «أُحُدٍ» بِجَرْحِهَا الْغَائِرِ

وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي دَعَا لَهَا بِهَا الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ .

وَعَادَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ «أُحُدٍ» وَهُوَ

يَقُولُ :

(مَا التَّفْتُ يَوْمَ أُحُدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَرَأَيْتُ

أُمَّ عُمَارَةَ تُقَاتِلُ دُونِي).

* * *

تَمَرَسَتْ أُمُّ عُمَارَةَ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى الْقِتَالِ ؛ فَأَتَقَنَتْهُ ...
وَذَاقَتْ حَلَاوَةَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَمَا عَادَتْ
تُطِيقُ عَنْهُ صَبْرًا .

وَقَدْ كُتِبَ لَهَا أَنْ تَشْهَدَ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ الْمَشَاهِدِ ...

فَحَضَرَتْ مَعَهُ الْحُدَيْبِيَّةَ ، وَخَيْرًا ...
وَعُمْرَةَ الْقَضِيَّةَ^(١) ، وَحُنَيْنًا ...

وَبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ...

وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ لَا يُعَدُّ شَيْئًا إِذَا قَبِسَ بِمَا كَانَ مِنْهَا
يَوْمَ «الْيَمَامَةِ» عَلَى عَهْدِ الصُّدَيْقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْهُ .

* * *

تَبَدُّأً قِصَّةُ أُمِّ عُمَارَةَ مَعَ يَوْمِ «الْيَمَامَةِ» مِنْذُ عَهْدِ
الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

(١) عُمْرَةُ الْقَضِيَّةُ أَوْ عَمْرَةَ الْقَضَاءِ : هِيَ الْعُمْرَةُ الَّتِي اعْتَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بَعْدَ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ .

فَقَدْ بَعَثَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ ابْنَهَا حَبِيبَ بْنِ زَيْدٍ
بِرِسَالَةٍ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ...

فَعَدَرَ مُسَيْلِمَةُ بِحَبِيبٍ وَقَتَلَهُ وَقَتَلَهُ تَفْشِعِرُ مِنْهَا
الْجُلُودُ .

ذَلِكَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ قَيْدَ حَبِيباً ثُمَّ قَالَ لَهُ :

أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ مُسَيْلِمَةُ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟

فَقَالَ : لَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ...

فَقَطَعَ مِنْهُ عُضْوًا ...

ثُمَّ مَازَالَ مُسَيْلِمَةُ يُعِيدُ عَلَيْهِ السُّؤَالَ نَفْسَهُ ، فَيَرُدُّ

عَلَيْهِ الْجَوَابَ نَفْسَهُ ...

لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْقِصُ ...

وَكَانَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقْطَعُ مِنْهُ عُضْوًا حَتَّى فَاضَتْ

رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ ذَاقَ مِنَ الْعَذَابِ مَا تَتَزَلُّزَلُ
مِنْهُ الصُّمُّ الصَّلَابُ (١)

* * *

نَعَى النَّاعِي حَبِيبَ بْنِ زَيْدٍ إِلَى أُمِّهِ نَسِيئَةَ الْمَارِئِيَّةِ
فَمَا زَادَتْ عَلَيَّ أَنْ قَالَتْ :

مِنْ أَجْلِ مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ أَعَدَدْتُهُ ...

وَعِنْدَ اللَّهِ احْتَسَبْتُهُ ...

لَقَدْ بَايَعَ الرَّسُولَ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ (٢) صَغِيرًا ...

وَوَفَّى لَهُ الْيَوْمَ كَبِيرًا ...

وَلَكِنْ أَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْ مُسَيِّمَةٍ لِأَجْعَلَنَّ بَنَاتِهِ يَلْطَمَنَّ

الْحُدُودَ عَلَيْهِ ...

* * *

لَمْ يُبْطِئِي الْيَوْمَ الَّذِي تَمَّتْهُ نَسِيئَةُ كَبِيرًا ...

حَيْثُ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَبِي بَكْرٍ فِي الْمَدِينَةِ أَنْ حَيَّ عَلَيَّ

قِتَالِ الْمُتَنَبِّئِي الْكَذَّابِ مُسَيِّمَةَ ...

(١) الصُّمُّ الصَّلَابُ : الصَّخُورُ الصَّلْبَةُ . (٢) لَيْلَةُ الْعَقَبَةِ : لَيْلَةُ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ .

فَمَضَى الْمُسْلِمُونَ يَحْتُونَ الْخُطَا إِلَى لِقَائِهِ ، وَكَانَ
فِي الْجَيْشِ أُمُّ عُمَارَةَ الْمُجَاهِدَةَ الْبَاسِلَةَ وَوَلَدَهَا عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ زَيْدٍ .

وَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ وَحِمِي وَطَيْسُ (١) الْمَعْرَكَةِ
كَانَ يَتَرَصَّدُ لِمُسَيْلِمَةَ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى رَأْسِهِمْ
أُمُّ عُمَارَةَ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَنْتَقِمَ لِابْنِهَا الشَّهِيدِ ...

وَوَحْشِيَّ بْنَ حَزْبٍ قَاتِلُ حَمْزَةَ (٢) يَوْمَ «أُحُدٍ» ...

فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ شَرَّ النَّاسِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .

بَعْدَ أَنْ قَتَلَ أَحَدَ أَخْيَارِ النَّاسِ وَهُوَ مُشْرِكٌ .

* * *

لَمْ تَسْتَطِعْ أُمُّ عُمَارَةَ أَنْ تَصِلَ إِلَى مُسَيْلِمَةَ بَعْدَ أَنْ
قُطِعَتْ يَدُهَا فِي الْمَعْرَكَةِ ...

(١) الوطيس : التنور ، ويقال حمي وطيس المعركة : التهمت واشتدت .
(٢) وَحْشِيَّ بْنَ حَزْبٍ ، وَحَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظرهما في كتاب « صور
من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

وَأَخْتَهَا^(١) الْجِرَاحُ ...

لِكِنِّ وَحِشِيِّ بْنِ حَزْبٍ ، وَأَبَا دُجَانَةَ صَاحِبِ سَيْفِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَلَا إِلَى مُسَيْلِمَةَ وَضَرَبَاهُ عَنْ يَدِ
وَاحِدَةٍ ...

فَقَدْ طَعَنَهُ وَحِشِيُّ بِالْحَزْبِيَّةِ ...

وَضَرَبَهُ أَبُو دُجَانَةَ بِالسَّيْفِ ...

فَخَرَّ صَرِيحاً فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ .

* * *

عَادَتْ أُمُّ عُمَارَةَ بَعْدَ «الْيَمَامَةِ» إِلَى الْمَدِينَةِ بِيَدِ
وَاحِدَةٍ وَمَعَهَا ابْنُهَا الْوَحِيدُ .

أَمَّا يَدُهَا الْأُخْرَى فَقَدْ اخْتَسَبَتْهَا^(٢) عِنْدَ اللَّهِ
كَمَا اخْتَسَبَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَدَهَا الشَّهِيدَ .

وَلَيْمَ لَا تَخْتَسِبُهُمَا ۱؟

(١) أختها الجراح : أوهنتها وأضعفتها .

(٢) اختسبها عند الله : طلبت أجرها عليها من الله .

أَلَمْ تَقُلْ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
 اذْعُ اللَّهُ لَنَا أَنْ نُرَافِقَكَ فِي الْجَنَّةِ ...
 فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمُهُ عَلَيْهِ :
 (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُمْ رِفَاقِي فِي الْجَنَّةِ)
 فَقَالَتْ :

مَا أَبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ مَا أَصَابَنِي فِي الدُّنْيَا ...

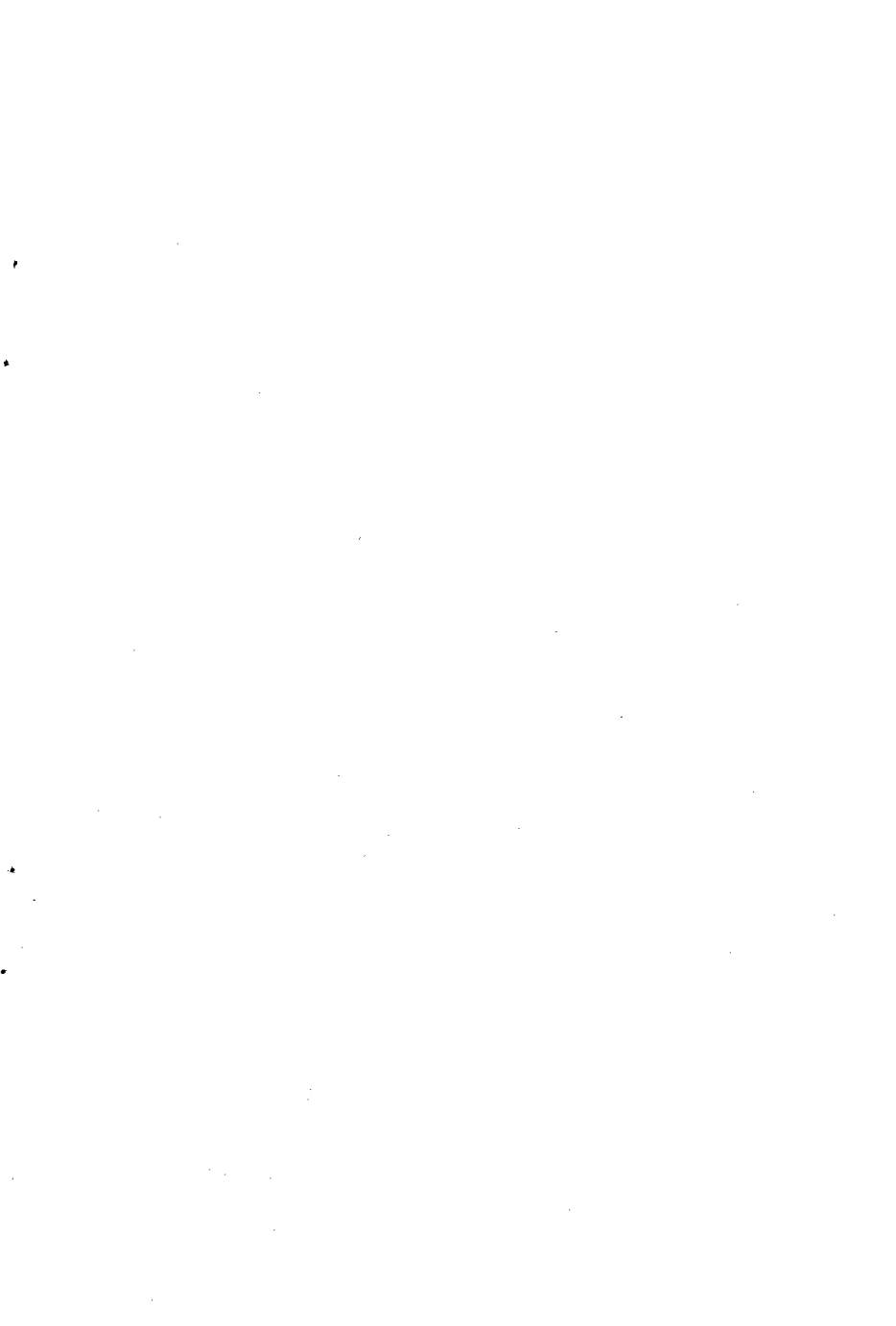
* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أُمِّ عُمَارَةَ وَأَرْضَاهَا ؛ فَقَدْ كَانَتْ طِرَازاً
 فَرِيداً بَيْنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ...
 وَأَنْمُودَجاً فَذَا بَيْنَ الْمُجَاهِدَاتِ الصَّابِرَاتِ (*) ...

* * *

(*) للاستزادة من أخبار نسيئة المازنية انظر :

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٠١ / ٨ .
- ٢ - الاستيعاب (عللى هامش الإصابة) : ٤٧٥ / ٤ .
- ٣ - الإصابة : ٤٧٩ / ٤ (الترجمة) ١٤٢٦ .
- ٤ - صفة الصفوة : ٣٤ / ٢ .
- ٥ - امتاع الأسماع : ١٤٨ / ١ .
- ٦ - تهذيب التهذيب : ٤٥٥ / ١٢ .



رَمْلَةٌ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ

« أُمٌ حَبِيبَةٌ أَثَرَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ عَلَى مَا سَوَّاهُمَا ، وَكَرِهَتْ
أَنْ تَعُودَ لِلْكَفْرِ كَمَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ »

[الْمُؤَزَّخُونَ]

مَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ أَنَّ فِي وُسْعٍ
أَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ يَخْرُجَ عَلَى سُلْطَانِهِ (١) ، أَوْ يُخَالَفَهُ فِي
أَمْرِ ذِي بَالٍ (٢) . فَهُوَ سَيِّدُ مَكَّةَ الْمُطَاعِ ، وَرَعِيمُهَا الَّذِي
تَدِينُ لَهُ بِالْوَلَاءِ (٣) .

لَكِنَّ ابْنَتَهُ رَمْلَةَ الْمُكَنَّىةَ بِأُمِّ حَبِيبَةَ ، قَدْ بَدَّدَتْ (٤)
هَذَا الزَّعْمَ ، وَذَلِكَ حِينَ كَفَرَتْ بِالْهَيْةِ أَبِيهَا ، وَأَمْنَتْ هِيَ
وَزَوْجُهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،
وَصَدَّقَتْ بِرِسَالَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .
وَقَدْ حَاوَلَ أَبُو سُفْيَانَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ سَطْوَةِ

(١) يَخْرُجُ عَلَى سُلْطَانِهِ : يُخَالَفُ أَمْرَهُ . (٤) بَدَّدَتْ هَذَا الزَّعْمَ : أَبْطَلَتْ
(٢) أَمْرُ ذُو بَالٍ : أَمْرٌ ذُو أَمْهِمِيَّةٍ وَشَأْنٍ . هَذَا الزَّعْمُ وَمَرْقَتُهُ .
(٣) الْوَلَاءُ : الطَّاعَةُ وَالْمَتَابَعَةُ .

وَبَأْسٍ^(١)، أَنْ يَرُدَّ ابْنَتَهُ وَزَوْجَهَا إِلَى دِينِهِ وَدِينِ آبَائِهِ، فَلَمْ يُفْلِحْ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي رَسَخَ فِي قَلْبِ رَمْلَةَ كَانَ أَعَمَقَ مِنْ أَنْ تَقْتَلِعَهُ أَعَاصِيرُ^(٢) أَبِي سُفْيَانَ، وَاتَّبَتْ مِنْ أَنْ تُزْعِرَهُ غَضْبُهُ.

* * *

رَكِبَ أَبَا سُفْيَانَ الْهَمُّ بِسَبَبِ إِسْلَامِ رَمْلَةَ؛ فَمَا كَانَ يَعْرِفُ بِأَيِّ وَجْهِ يُقَابِلُ قُرَيْشًا، بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنِ إِخْضَاعِ ابْنَتِهِ لِمَشِيئَتِهِ، وَالْحَيْلُولَةَ دُونَهَا وَدُونَ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ.

* * *

وَلَمَّا وَجَدَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ سَاخِطٌ عَلَى رَمْلَةَ وَزَوْجَهَا اجْتَرَأَتْ عَلَيْهِمَا، وَطَفِقَتْ تُضَيِّقُ عَلَيْهِمَا الْخِنَاقَ، وَجَعَلَتْ تُرَهِّقُهُمَا^(٣) أَشَدَّ الْإِرْهَاقِ، حَتَّى بَاتَا لَا يُطِيقَانِ الْحَيَاةَ فِي مَكَّةَ.

وَلَمَّا أَدَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ

(١) البأس: القوة.

(٢) أعاصير: جمع إعصار، وهو ريح شديدة ترتفع بتراب الأرض ومياه البحر.

(٣) ترهقهما: تئبهما وتئبهما.

عَنْ حَقِيقَةِ دِينِهِمْ وَعَمَّا يَقُولُونَهُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ،
وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُسْمِعُوهُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى
قَلْبِ نَبِيِّهِمْ .

فَلَمَّا أَخْبِرُوهُ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ ، وَتَلَّوْا عَلَيْهِ بَعْضًا مِنْ
آيَاتِ الْقُرْآنِ ، بَكَى حَتَّى اخْضَلَّتْ (١) لِحْيَتُهُ وَقَالَ لَهُمْ :
إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ، الَّذِي جَاءَ بِهِ
عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ يَخْرُجَانِ مِنْ مِشْكَاةٍ (٢) وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ أَعْلَنَ إِيمَانَهُ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَصَدِيقَهُ
لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

كَمَا أَعْلَنَ حِمَايَتَهُ لِمَنْ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِهِ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بَطَارِقَتَهُ (٣) أَبَوْا أَنْ يُسْلِمُوا ،
وَوَظَلُّوا عَلَى نَصْرَانِيَّتِهِمْ .

* * *

(١) اخضلت لحيته : تبللت لحيته .

(٢) المشكاة : ما يوضع عليه المصباح [أي من مصدر نور واحد] .

(٣) البطارقة : جمع بطريق وهو القائد .

حَسِبْتُ (١) أُمَّ حَبِيبَةَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْأَيَّامَ صَفَتْ لَهَا
بَعْدَ طُولِ عُبُوسٍ ، وَأَنَّ رِحْلَتَهَا الشَّاقَّةَ فِي طَرِيقِ الْآلَامِ قَدْ
أَفْضَتْ (٢) بِهَا إِلَى وَاحِدَةِ الْأَمَانِ ...

إِذْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا خَبَأَتْهُ لَهَا الْمَقَادِيرُ ...

* * *

فَلَقَدْ شَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ ، أَنْ يَمْتَحِنَ أُمَّ حَبِيبَةَ
امْتِحَانًا قَاسِيًا تَطِيشُ (٣) فِيهِ عُقُولُ الرِّجَالِ ذَوِي
الْأَحْلَامِ (٤) وَتَتَضَعُضَعُ أَمَامَهُ أَفْهَامِ ذَوِي الْأَفْهَامِ .

وَأَنَّ يُخْرِجَهَا مِنْ ذَلِكَ الْإِتْيَاءِ الْكَبِيرِ ظَافِرَةً
تَتَرَبَّعُ (٥) عَلَى قِمَّةِ النُّجَاحِ ...

فَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ أَوْتِ أُمَّ حَبِيبَةَ إِلَى مَضْجَعِهَا ، فَرَأَتْ
فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمُ أَنَّ زَوْجَهَا عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ يَتَخَبَّطُ فِي

(١) حَسِبْتُ أُمَّ حَبِيبَةَ : ظَنَنْتُ .

(٢) أَفْضَتْ بِهَا : انْتَهَتْ بِهَا وَأَوْصَلَتْهَا .

(٣) تَطِيشُ : تَتَوَهَّجُ وَتَضَلُّ .

(٤) ذَوُو الْأَحْلَامِ : أَصْحَابُ الْعُقُولِ .

(٥) تَتَرَبَّعُ : تَجْلِسُ .

بَحْرٍ لُجِّيٍّ (١) غَشِيَتْهُ ظُلُمَاتٌ (٢) بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَهُوَ
بِأَسْوَأِ حَالٍ ...

فَهَبَّتْ مِنْ نَوْمِهَا مَذْعُورَةً (٣) مُضْطَرِبَةً ...
وَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَذُكَّرَ لَهُ أَوْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ شَيْعًا مِمَّا
رَأَتْ ...

لَكِنْ رُؤْيَاهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ تَحَقَّقَتْ ، إِذْ لَمْ يَنْقُضِ يَوْمٌ
تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْمَشْهُومَةَ (٤) حَتَّى كَانَ عُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ،
قَدْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَتَنَصَّرَ ...

ثُمَّ أَكْبَّ عَلَى حَانَاتِ (٥) الْخَمَّارِينَ يُعَاقِرُ (٦) أُمَّ
الْخَبَائِثِ (٧) فَلَا يَزْتَوِي مِنْهَا وَلَا يَشْبَعُ .
وَقَدْ خَيْرَهَا بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مَرًّا :

(١) بحرٌ لُجِّيٌّ : بحرٌ ذو لُجج متلاطمة .

(٢) غَشِيَتْهُ ظُلُمَاتٌ : غَطَّتْهُ ظُلُمَاتٌ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ .

(٣) هَبَّتْ مَذْعُورَةً : نَهَضَتْ خَائِفَةً .

(٤) اللَّيْلَةَ الْمَشْهُومَةَ : اللَّيْلَةَ التَّيْسِيَّةَ .

(٥) حَانَاتِ الْخَمَّارِينَ : دَكَائِنِ الْخَمَّارِينَ .

(٦) يُعَاقِرُ الْخَمْرَ : يَلْزِمُهَا وَيُذِمُّ عَلَيْهَا .

(٧) أُمَّ الْخَبَائِثِ : كِتَابَةٌ عَنِ الْخَمْرِ ، وَدُعِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أَسْلُ كُلِّ شَرٍّ .

فَإِمَّا أَنْ تُطَلَّقَ ...

وَإِمَّا أَنْ تَتَنَصَّرَ ...

* * *

وَجَدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ نَفْسَهَا فَجَاءَتْ بَيْنَ ثَلَاثِ :

فَإِمَّا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِرُزُوجِهَا الَّذِي جَعَلَ يُلِيحُ فِي
دَعْوَتِهَا إِلَى التَّنَصُّرِ ؛ وَبِذَلِكَ تَرْتَدُّ عَنْ دِينِهَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -
وَتَبْوؤُ بِخِزْيِ الدُّنْيَا ^(١) وَعَذَابِ الآخِرَةِ .

وَهُوَ أَمْرٌ لَا تَفْعَلُهُ وَلَوْ مُشِطَ لَحْمِهَا عَنْ عَظْمِهَا
بِأَمْشَاطٍ مِنْ حَدِيدٍ ...

وَإِمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا فِي مَكَّةَ ، وَهُوَ مَا زَالَ
قَلْعَةً لِلشُّرُوكِ ، فَتَعِيشَ فِيهِ مَقْهُورَةً مَغْلُوبَةً عَلَى دِينِهَا .

وَإِمَّا أَنْ تَبْقَى فِي بِلَادِ « الْحَبَشَةِ » وَحَيْدَةً ، شَرِيدَةً ،
لَا أَهْلَ لَهَا وَلَا وَطَنَ وَلَا مُعِينَ .

فَأَثَرَتْ ^(٢) مَا فِيهِ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا سِوَاهُ ...

(١) تبوء بخزي الدنيا : ترجع بعار الدنيا . (٢) أثرت : فضلت واختارت .

وَأَزْمَعَتْ^(١) عَلَى الْبَقَاءِ فِي « الْحَبَشَةِ » حَتَّى يَأْتِي
اللَّهُ بِفَرْجٍ مِنْ عِنْدِهِ .

* * *

لَمْ يَطْلِ أَنْتَظَارُ أُمَّ حَبِيبَةَ كَثِيرًا .
فَمَا إِنْ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا^(٢) مِنْ زَوْجِهَا الَّذِي لَمْ يَعِشْ
بَعْدَ تَنْصُرِهِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَتَاهَا الْفَرْجُ ...
لَقَدْ جَاءَهَا السَّعْدُ يُرْفِرِفُ بِأَجْنِحَتَيْهِ الزُّمُرْدِيَّةِ^(٣)
الْحُضْرِ فَوْقَ نَيْبِهَا الْمَخْزُونِ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ...
فَفِي ذَاتِ ضُحَى مُفَضِّضِ السَّنَا^(٤) طَلَّقِ الْمُحَيَّا
طَرِقَ عَلَيْهَا الْبَابُ ؛ فَلَمَّا فَتَحْتَهُ فُوجِئَتْ « بِأَبْرَهَةَ » وَصِيفَةَ
النُّجَاشِيِّ^(٥) مَلِكِ الْحَبَشَةِ .
فَحَيْثُهَا بِأَدَبٍ وَبِشْرٍ ، وَاسْتَأْذَنْتْ بِالِدُخُولِ عَلَيْهَا
وَقَالَتْ :

(١) أَزْمَعَتْ : عَزَمَتْ وَقَرَّرَتْ .

(٢) الْعِدَّةُ : الْمُدَّةُ الْمَشْرُوعَةُ الَّتِي تَقْضِيهَا الْمَرْأَةُ بَعْدَ وِفَاةِ زَوْجِهَا أَوْ طَلَاقِهَا مِنْهُ .

(٣) الزُّمُرْدِيَّةُ : نَسَبَةٌ إِلَى الزُّمُرُودِ ، وَهُوَ حَجَرٌ كَرِيمٌ أَخْضَرُ اللَّوْنِ .

(٤) مُفَضِّضُ السَّنَا : سَنَاةٌ فَضِي اللَّوْنِ ، وَالسَّنَا : الضُّوءُ .

(٥) وَصِيفَةُ النُّجَاشِيِّ : خَادِمَتُهُ الْخَاصَّةُ .

إِنَّ الْمَلِكَ يُحْيِيكَ وَيَقُولُ لَكَ : إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ
اللَّهِ قَدْ خَطَبَكَ لِنَفْسِهِ ...

وَإِنَّهُ بَعَثَ إِلَيْهِ كِتَابًا وَكَلَّمَهُ فِيهِ بِأَنْ يَعْقِدَ لَهُ عَلَيْكَ ...
فَوَكَّلِي عَنْكَ مَنْ تَشَائِنَ .

* * *

اسْتَطَارَتْ (١) أُمُّ حَبِيبَةَ فَرِحًا ، وَهَتَفَتْ : بِشْرِكَ اللَّهُ
بِالْخَيْرِ ... بِشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

وَطَفِيفَتْ تَخْلَعُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْحُلِيِّ ؛ فَتَزَعَتْ
سِوَارِيزَهَا ، وَأَعْطَتْهُمَا لِأَبْرَهَةَ ...

ثُمَّ أَلْحَقَتْهُمَا بِخُلُخَالِهَا (٢) ... ثُمَّ أَتْبَعَتْ ذَلِكَ
بِقُرُوطِيهَا (٣) وَخَوَاتِيمِهَا ...

وَلَوْ كَانَتْ تَمْلِكُ كُنُوزَ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَأَعْطَتْهَا لَهَا فِي
تِلْكَ اللَّحْظَةِ .

(١) استطارت فرحاً : كادت تطير من شدة الفرح .
(٢) الخلخال : ضرب من الحلبي تضعه المرأة في رجلها .
(٣) القُرُوط : الحلق .

ثُمَّ قَالَتْ لَهَا: لَقَدْ وَكَلْتُ عَنِّي خَالِدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ
الْعَاصِ^(١)، فَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ .

* * *

وَفِي قَصْرِ النَّجَاشِيِّ الرَّابِضِ عَلَى رَابِعَةِ شَجَرَاءَ^(٢)
مُطَلَّةٍ عَلَى رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْحَبَشَةِ النَّضْرَةِ .

وَفِي أَحَدِ أَبْهَائِهِ^(٣) الْفَسِيحَةِ الْمُرْدَانَةِ بِالتَّقْوِشِ
الرَّاهِيَةِ، الْمَضَاءَةَ بِالشَّرْحِ^(٤) النَّحَاسِيَّةِ الْوَضَاءَةَ،
الْمَفْرُوشَةَ بِفَاحِرِ الرَّيَاشِ اجْتَمَعَ وَجُوهُ الصَّحَابَةِ
الْمُقِيمُونَ فِي « الْحَبَشَةِ »، وَعَلَى رَأْسِهِمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُدَافَةَ
السُّهَمِيِّ^(٥)، وَغَيْرُهُمْ لِيَشْهَدُوا عَقْدَ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي
سُفْيَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(١) خالد بن سعيد بن العاص: انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة »
للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٢) رابية شجراء: رابية ذات شجر.

(٣) الأبهاء: جمع بهو، وهو القاعة الواسعة.

(٤) الشرح: جمع سراج، وهو الميضاب الذي يُضَاءُ بالزيت ونحوه.

(٥) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف، الناشر دار الأدب
الإسلامي، الطبعة المشروعة.

فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْجَمْعُ، تَصَدَّرَ النَّجَاشِيُّ الْمَجْلِسَ
وَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

أَحْمَدُ اللَّهِ الْقُدُوسَ الْمُؤْمِنَ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ (١)،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّه
هُوَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ .

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَبَ مِنِّي أَنْ
أَزُوجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، فَأَجَبْتُهُ إِلَى مَا طَلَبَ،
وَأَمْهَرْتُهَا نِيبَةَ عَنْهُ أَرْبَعِمِائَةَ دِينَارٍ ذَهَبًا ...

عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

ثُمَّ سَكَبَ الدَّنَانِيرَ بَيْنَ يَدَيْ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ
الْعَاصِ .

وَهُنَا قَامَ خَالِدٌ فَقَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَتُوبُ
إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِدِينِ

(١) القدوس، المؤمن، العزيز الجبار : من أسماء الله الحسنى .

الهُدَى وَالْحَقَّ لِيُظْهِرَهُ^(١) عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ .

أَمَّا بَعْدُ ...

فَقَدْ أَجَبْتُ طَلَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَزَوَّجْتُهُ
مَوْكَلْتِي أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ .

فَبَارَكَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِزَوَّجْتِهِ .

وَهَنِيئًا لِأُمِّ حَبِيبَةَ بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْخَيْرِ ...

ثُمَّ حَمَلَ الْمَالَ وَهَمَّ أَنْ يَمْضِيَ بِهِ إِلَيْهَا ؛ فَقَامَ
أَصْحَابُهُ لِقِيَامِهِ وَهَمُّوا بِالْإِنْصِرَافِ أَيْضًا .

فَقَالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ : اجْلِسُوا فَإِنَّ سُنَّةَ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا
تَزَوَّجُوا أَنْ يُطْعَمُوا طَعَامًا .

وَدَعَا لَهُمْ بِطَعَامٍ فَأَكَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ انْفَضُوا^(٢) .

* * *

(١) ليظهره: ليجعله غالباً قوياً ظاهراً .

(٢) انفضوا: تفرقوا .

قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ :

فَلَمَّا وَصَلَ الْمَالُ إِلَيَّ أَرْسَلْتُ إِلَيْ «أَبْرَهَةَ» الَّتِي
بَشَّرْتَنِي خَمْسِينَ مِثْقَالًا^(١) مِنَ الذَّهَبِ وَقُلْتُ :

إِنِّي كُنْتُ أَعْطَيْتُكَ مَا أَعْطَيْتُ حِينَ بَشَّرْتَنِي ، وَلَمْ
يَكُنْ عِنْدِي يَوْمَئِذٍ مَالٌ ...

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَتْ «أَبْرَهَةَ» إِلَيَّ وَرَدَّتِ
الذَّهَبَ ، وَأَخْرَجَتْ حُقًّا^(٢) فِيهِ الْحَلِيءُ الَّذِي كُنْتُ
أَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ فَرَدَّتُهُ إِلَيَّ أَيْضًا وَقَالَتْ :

إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ عَزَمَ عَلَيَّ أَلَّا آخُذَ مِنْكَ شَيْعًا .

وَقَدْ أَمَرَ نِسَاءَهُ أَنْ يَبْعَثْنَ لِكَ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُنَّ مِنْ

الطَّيِّبِ .

فَلَمَّا كَانَ الْعَدُ جَاءَتْنِي يَوْزِسُ^(٣) ، وَعُودِ^(٤) وَعَنْبَرِ ،

ثُمَّ قَالَتْ لِي :

(١) المِثْقَالُ : ما يوزن به الذهب ونحوه .

(٢) الحُقُّ : بضم الحاء وحاء الطيب .

(٣) الیورس : نبات أصفر يتخذ منه الزعفران .

(٤) العود : ضرب من الطيب يُبَخَّرُ به .

إِنَّ لِي عِنْدَكَ حَاجَةً ...

فَقُلْتُ : وَمَا هِيَ !؟

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَسْلَمْتُ ، وَأَتَّبَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ فَاقْرَأْ لِي
عَلَى النَّبِيِّ مِنِّي السَّلَامَ وَأَعْلِمِيهِ أَنِّي آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا تَنْسِي ذَلِكَ ...

ثُمَّ جَهَّزْتَنِي (١) .

* * *

ثُمَّ إِنِّي حُمِلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَلَمَّا لَقَيْتُهُ ، أَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْخِطْبَةِ ،
وَمَا فَعَلْتُهُ مَعَ « أَبْرَهَةَ » وَأَقْرَأْتُهُ مِنْهَا السَّلَامَ .

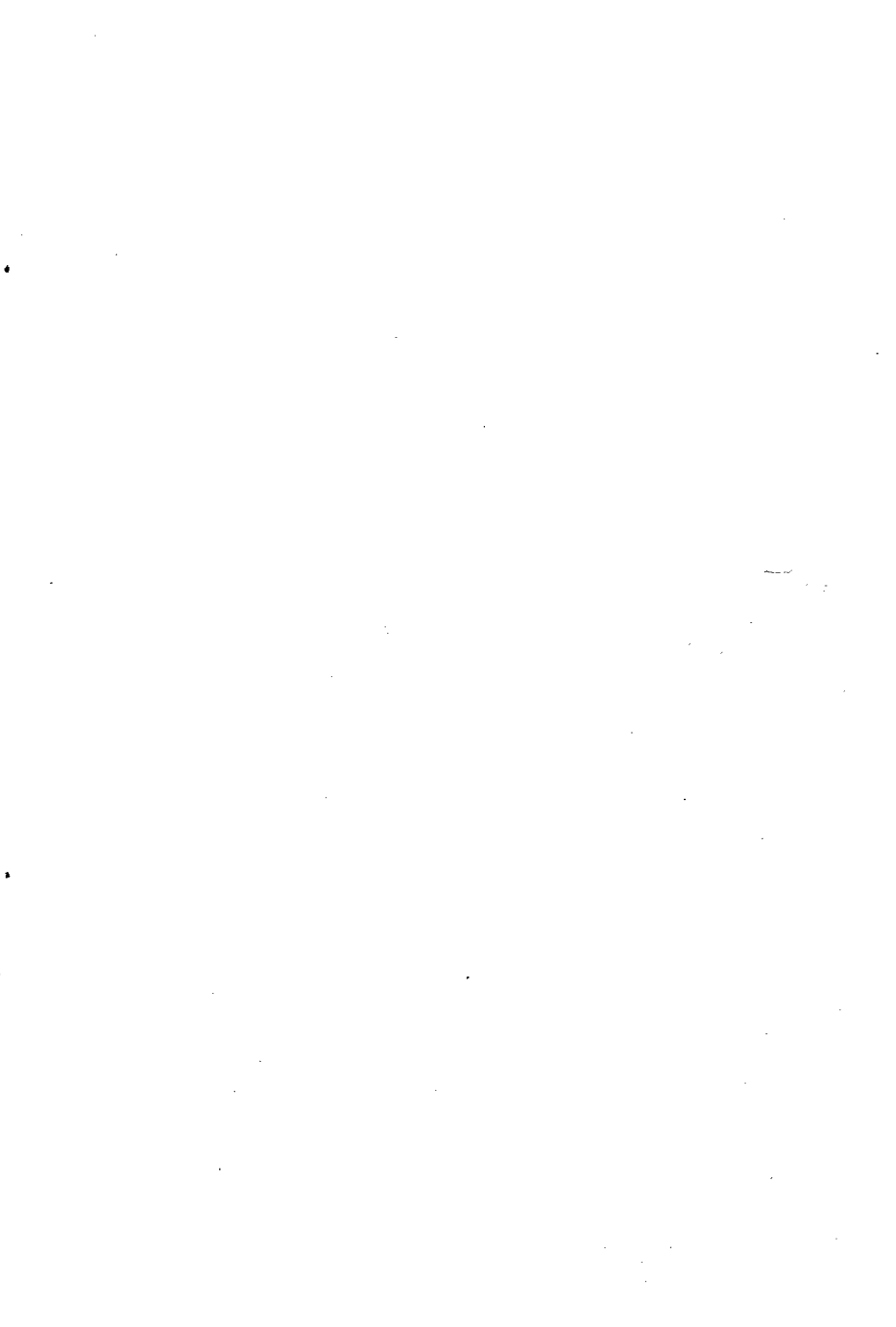
فَسُرَّ بِخَبَرِهَا وَقَالَ :

(وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ) (*) .

* * *

(١) جهّزتنى : أعدت لى جهازى .

-
- (*) للاستزادة من أخبار رَمْلَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ انظر:
- ١ - الإصابة: ٣٠٥/٤ (الترجمة) ٤٣٤.
 - ٢ - الاستيعاب (عَلَى هَامِشِ الْإِصَابَةِ): ٣٠٣/٤.
 - ٣ - أُشْدُ الْغَايَةِ: ٤٥٧/٥.
 - ٤ - صفوة الصفوة: ٢٢/٢.
 - ٥ - المعارف لابن قتيبة: ١٣٦، ٣٤٤٠.
 - ٦ - سير أعلام النبلاء.
 - ٧ - مرآة الجنان لليافعي.
 - ٨ - السيرة النبوية لابن هشام: (انظر الفهارس).
 - ٩ - تاريخ الطبري: (انظر الفهارس في العاشر).
 - ١٠ - طبقات ابن سعد: (انظر الفهارس في الثامن).
 - ١١ - تهذيب التهذيب لابن حجر: ٤١٩/١٢.
 - ١٢ - حياة الصحابة: (انظر الفهارس).
 - ١٣ - أعلام النساء لكحالة: ٤٦٤/١.



الْغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ

المكثأة بأم سليم

« مَا سَمِعْنَا بِامْرَأَةٍ قَطُّ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمِّ سَلِيمِ »

إِذْ كَانَ مَهْرُهَا الْإِسْلَامَ »

[أهل المدينة]

كَانَتِ الْغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ - حِينَ أَهَلَ الْإِسْلَامُ
بِنُورِهِ عَلَى الْأَرْضِ - نَصْفًا تَخْطُو نَحْوَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ
عُمْرِهَا، وَكَانَ زَوْجُهَا مَالِكُ بْنُ النَّضْرِ يُسْبِغُ عَلَيْهَا مِنْ
وَارِفٍ (١) حُبِّهِ، وَظَلِيلِ وِدَادِهِ مَا مَلَأَ حَيَاتَهَا نُضْرَةً (٢)
وَرَعْدًا (٣) وَكَانَ أَهْلُ « يَثْرِبَ » يُغِيْطُونَ الزَّوْجَ السَّعِيدَ عَلَى
مَا تَتَحَلَّى بِهِ عَقِيلَتُهُ مِنْ رَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَبُعْدِ النَّظَرِ،
وَحُسْنِ التَّبَعْلِ (٤).

* * *

(١) وَارِفٌ حُبِّهِ: ظلال حُبِّهِ الممتدة.

(٢) النضرة: الرونق واللفظ والبهجة والبهاء.

(٣) رَعْدًا: الرغد العيش الواسع الطيب الذي لا تعب فيه.

(٤) التَّبَعْلُ: أداء حق الزوج بالطاعة والإحسان.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ نَفَذَ إِلَى « يَثْرِبَ »
 - مَعَ الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ (١) - أَوَّلُ شُعَاعٍ مِنْ
 أَسْعَةِ الْهِدَايَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، فَتَفَتَّحَ لَهُ قَلْبُ الْعُمَيْصَاءِ كَمَا
 تَتَفَتَّحُ أَزَاهِيرُ الرِّيَاضِ لِتَبَاشِيرِ الصَّبَاحِ ، فَمَا لَبِثَتْ أَنْ أَعْلَنْتْ
 إِسْلَامَهَا يَوْمَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ - فِي الْمَدِينَةِ - يُعَدُّونَ عَلَى
 الْأَصَابِعِ .

ثُمَّ دَعَتْ الزَّوْجَةَ الْوَفِيَّةُ زَوْجَهَا الْأَيْمَرَ لِيَنْهَلَ مَعَهَا مِنْ
 هَذَا الْمَنْهَلِ الْإِلَهِيِّ الْعَذْبِ الطُّهُورِ ، وَيَحْظَى بِمَا حَظِيَتْ
 بِهِ مِنْ سَعَادَةِ الْإِيمَانِ ...

لَكِنَّ مَالِكَ بْنَ النَّضْرِ لَمْ يَشْرَحْ لِلدِّينِ الْجَدِيدِ
 صَدْرًا ، وَلَا طَابَ بِهِ نَفْسًا ، بَلْ إِنَّهُ دَعَا زَوْجَهُ بِالْمُقَابِلِ إِلَى
 الرَّجُوعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْعُودَةِ إِلَى دِينِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
 وَتَشَبَّهَتْ كُلُّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بِمَوْقِفِهِ فَالْعُمَيْصَاءُ تَكَرَّهُ أَنْ تَعُودَ
 إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ كَمَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ أَنْ يُنْفَذَ فِي
 النَّارِ ...

(١) مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَّانِ الْقُرَشِيِّ : أَحَدُ السَّابِقِينَ إِلَى
 الْإِسْلَامِ ، وَأَوَّلُ الْمُبَشِّرِينَ بِهِ خَارِجَ مَكَّةَ ، اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أُحُدِ .

وَمَالِكٌ يَتَّعِصِبُ لِذِي الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ فِي عِنَادٍ ...
وَكَانَتْ الْعُمَيْصَاءُ تَمْلِكُ مِنْ قُوَّةِ الْحُجَّةِ مَا تُفْجِمُ (١)
بِهِ زَوْجَهَا ، وَكَانَ فِي دَعْوَتِهَا مِنْ نُورِ الْحَقِّ مَا يَفْضَحُ بَاطِلَهُ
الْوَاهِي (٢) الْمُتَهَاتِفِ (٣) ...

وَكَانَ لِمَالِكٍ صَنْمٌ مِنْ خَشَبٍ يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
فَكَانَتْ تُحَاجُّهُ فِي أَمْرِهِ قَائِلَةً :

أَتَعْبُدُ جِدْعَ شَجَرَةٍ نَبَتَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي تَطْوُهَا
بِقَدَمَيْكَ ، وَتَرْمِي فِيهَا فَضْلَاتِكَ !؟ ...

أَتَدْعُو - مِنْ دُونِ اللَّهِ - خَشْبَةً نَجَرَهَا لَكَ حَبَشِيٌّ مِنْ
صُنَاعِ الْمَدِينَةِ !؟

وَلَمَّا ضَاقَ الزُّوجُ ذَرْعاً بِحُجُجِ زَوْجَتِهِ الدَّامِغَةِ (٤)
غَادَرَ الْمَدِينَةَ وَمَضَى هَائِماً عَلَى وَجْهِهِ مُتَّجِهاً نَحْوَ بِلَادِ

(١) مَا تُفْجِمُ : مَا تَسَكَّتْ بِهِ زَوْجَهَا مِنَ الدَّلِيلِ وَالْبِرْهَانِ .

(٢) الْوَاهِي : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا قِوَامَ لَهُ .

(٣) الْمُتَهَاتِفِ : السَّاقِطُ الْمُتَدَاعِي .

(٤) الدَّامِغَةُ : الَّتِي لَا يَجِدُ الْخَلْصَ مِنْهَا حَوْلًا .

الشَّامِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ هُنَاكَ قَلِيلًا حَتَّى مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ .

* * *

وَمَا إِنَّ شَاعَ فِي الْمَدِينَةِ خَبْرُ تَرْمُلِ الْغَمِيصَاءِ حَتَّى
تَشَوَّقَ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى الْاِقْتِرَانِ بِهَا ، لَوْلَا أَنَّهُمْ كَانُوا
يَخْشَوْنَ أَنْ تَرُدَّهُمْ خَائِبِينَ لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْاِخْتِلَافِ
فِي الدِّينِ .

غَيْرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ سَهْلٍ ^(١) الْمَكْنِيِّ بِأَبِي طَلْحَةَ أَطْمَعَهُ
فِي رِضَاهَا بِهِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ رَوَابِطِ الْقُرْبَى ؛ فِكَلَاهُمَا
مِنْ بَنِي « النَّجَّارِ » .

* * *

مَضَى أَبُو طَلْحَةَ إِلَى بَيْتِ الْغَمِيصَاءِ وَخَاطَبَهَا
بِكُنْيَتِهَا قَائِلًا :

يَا أُمَّ سُلَيْمِ ، لَقَدْ جِئْتُكَ خَاطِبًا ؛ فَأَرْجُو أَلَّا أُرَدُّ
خَائِبًا .

(١) زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا مِثْلَكَ يُرَدُّ يَا أَبَا طَلْحَةَ ، وَلَكِنَّكَ
رَجُلٌ كَافِرٌ وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ ، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ ،
فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ صَدَاقًا غَيْرَ الْإِسْلَامِ .
فَقَالَ : دَعِينِي حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِي . وَمَضَى ...

وَلَمَّا كَانَ الْغَدُ عَادَ إِلَيْهَا وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ .

فَقَالَتْ : أَمَا وَإِنَّكَ قَدْ أَسَلَمْتَ ؛ فَقَدْ رَضِيْتُكَ
زَوْجًا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ : مَا سَمِعْنَا بِامْرَأَةٍ قَطُّ كَانَتْ
أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ إِذْ كَانَ مَهْرُهَا الْإِسْلَامَ .

* * *

نِعِمَّ أَبُو طَلْحَةَ بِمَا كَانَتْ تَتَحَلَّى بِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مِنْ
كَرِيمِ السَّمَائِلِ ^(١) ، وَنَبِيلِ الْخِصَائِلِ ، ثُمَّ زَادَهُ سَعَادَةً بِهَا
أَنَّهَا وَضَعَتْ لَهُ غُلَامًا غَدًا قُرَّةَ عَيْنِهِ ، وَفَرَحَتْ قَلْبِهِ .

(١) كريم السَّمَائِلِ : ذو خصال كريمة حميدة .

لَكِنَّهُ يَتَنَمَّا كَانَ يَتَأَهَّبَ لِسَفَرٍ مِنْ أَسْفَارِهِ اسْتَكَلَى
الطُّفْلُ الصَّغِيرُ مِنْ عِلَّةِ الْمَثِّ بِهِ ، فَجَرَعَ عَلَيْهِ جَزَعًا شَدِيدًا
كَأَدَّ يَصْرِفُهُ عَنِ السَّفَرِ .

وَفِي غَيْبَتِهِ الْقَصِيرَةِ ذَوَى^(١) الْغُصْنِ النَّضِيرِ^(٢) ، ثُمَّ
وُورِي الثَّرَى^(٣) ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلِيمٍ لِأَهْلِهَا : لَا تَخْبِرُوا
أَبَا طَلْحَةَ بِمَوْتِ ابْنِهِ حَتَّى أُخْبِرَهُ أَنَا .

* * *

عَادَ أَبُو طَلْحَةَ مِنْ رِحْلَتِهِ فَتَلَقَّتْهُ أُمُّ سَلِيمٍ هَاشَّةً بَاشَّةً
فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً ؛ فَبَادَرَهَا بِالسُّؤَالِ عَنِ الصَّبِيِّ فَقَالَتْ :
دَعُهُ فَإِنَّهُ الْآنَ أَسْكَنُ مَا عَرَفْتُهُ .

ثُمَّ قَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ ، وَجَعَلَتْ تُؤْنِسُهُ وَتُدْخِلُ عَلَى
قَلْبِهِ الشُّرُورَ ، فَلَمَّا وَجَدَتْ أَنَّهُ شَبِعَ وَاسْتَرَاحَ قَالَتْ لَهُ :
يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا اسْتَرْجَعُوا عَارِيَّةً^(٤)

(١) ذَوَى : ذبل وضعف . (٢) ووري الثرى : دفن في التراب .
(٣) الغصن النضير : الشيء المستعار الذي يجب رده .
(٤) عارئة : الحسن الجميل .

أَعَارَوْهَا لِآخِرِينَ أَفَمِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَخْطُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْ
يَمْنَعُوهَا مِنْهُمْ؟

قَالَ : لَا

قَالَتْ : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَدَّ مِنْكَ مَا وَهَبَ ، فَاحْتَسِبْ
وَلَدَكَ عِنْدَهُ ...

فَتَلَقَّى أَبُو طَلْحَةَ قَضَاءَ اللَّهِ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ .

وَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثَهُ
بِمَا كَانَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ فَدَعَا لَهُ وَلَهَا بِأَنْ يُعَوِّضَهُمَا اللَّهُ خَيْرًا
مِمَّا فَقَدَاهُ ، وَأَنْ يُبَارِكَ لَهُمَا فِي الْعَوِضِ ؛ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ
جَلًّا وَعِزًّا دُعَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَحَمَلَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ ، وَلَمَّا أَتَمَّتْ
حَمْلَهَا كَانَتْ عَائِدَةً إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَفَرِ هِيَ وَرَوْجُهَا مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ « يَثْرِبَ » جَاءَهَا الْمَخَاضُ فَتَوَقَّفَ
أَبُو طَلْحَةَ مَعَهَا وَمَضَى النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يُرِيدُ دُخُولَ
الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَجِنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، فَرَفَعَ أَبُو طَلْحَةَ طَرْفَهُ إِلَى
السَّمَاءِ وَقَالَ :

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبُّ أَنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ
إِذَا خَرَجَ ، وَأَنْ أَدْخَلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ وَقَدْ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ
مَا تَرَى .

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ : يَا أَبَا طَلْحَةَ إِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَجِدُ
مِنْ أَلَمِ الْمَخَاضِ بِهَذَا الْمَوْلُودِ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ مِنْ قَبْلُ ،
فَانْطَلِقْ بِنَا وَلَا تَتَأَخَّرْ عَنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا بَلَغَا الْمَدِينَةَ وَضَعَتْ حَمْلَهَا ، فَإِذَا
هُوَ غُلَامٌ ، فَقَالَتْ لِمَنْ حَوْلَهَا :

لَا يُرِضِعُهُ أَحَدٌ قَبْلَ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
فَلَمَّا أَصْبَحَ حَمَلُهُ إِلَيْهِ أَخُوهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ^(١) ، فَلَمَّا
رَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ مُقْبِلًا قَالَ :

(لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ) .

فَقَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَوَضَعَ الْغُلَامَ فِي

(١) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

حِجْرِهِ ، فَدَعَا بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوِ الْمَدِينَةِ وَلَاكَهَا فِي فَمِهِ
الشَّرِيفِ حَتَّى ذَابَتْ ، وَوَضَعَهَا فِي فَمِ الصَّبِيِّ ، فَجَعَلَ
يَتَلَمَّظُهَا (١) ، ثُمَّ مَسَحَ وَجْهَهُ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ
اللَّهِ ، فَجَاءَ مِنْ ضَلْبِهِ عَشْرَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ الْأَخْيَارِ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ أُمِّ سَلِيمٍ أَنَّهَا أَحْبَبَتْ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حُبًّا خَالَطَ مِنْهَا اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ ،
وَسَكَنَ فِي حَبَّةِ الْقَلْبِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُبِّهَا لَهُ مَا حَدَّثَ عَنْهُ ابْنُهَا أَنَسٌ قَالَ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَائِمًا فِي بَيْتِنَا ذَاتَ نَهَارٍ ؛
وَكَانَ الْحَرُّ شَدِيدًا ، فَأَخَذَ الْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهِ ،
فَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ ، وَجَعَلَتْ تُسَلِّتُ فِيهَا الْعَرَقَ
فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ :

(مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ يَا أُمَّ سَلِيمِ ؟)

(١) يَتَلَمَّظُهَا : أَي يَتَّبِعُ بِلِسَانِهِ بَقِيَّتَهَا وَيَمْسَحُ بِهِ شَفْتَيْهِ .

قَالَتْ : هَذَا عَرَقُكَ أَجْمَعَهُ وَأَجْعَلُهُ فِي طَيْبِنَا ، فَيَعْدُوا
أَطْيَبَ الطَّيْبِ .

* * *

وَمِنْ شَوَاهِدِ حُبِّهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَفِيْرَةٌ ، أَنَّ ابْنَتَهَا أَنْسَا كَانَتْ لَهُ ذُوَابَةٌ (١)
تَنْوُسُ (٢) عَلَى جَبِينِهِ ، فَرَعِبَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا أَنْ تَقْضِيَهَا لَهُ
بَعْدَ أَنْ طَالَتْ فَأَبَتْ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ
عَلَيْهِ كَانَ كُلَّمَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَنْسَ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ وَمَسَّ
ذُوَابَتَهُ الْمُدْلَاءَةَ عَلَى جَبِينِهِ .

* * *

وَلَمْ تَقْتَصِرْ خَصَائِلُ أُمِّ سُلَيْمٍ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مُؤْمِنَةً
رَاسِخَةً الْإِيْمَانِ ، عَاقِلَةً وَافِرَةً الْعَقْلِ ، زَوْجاً وَأُمّاً مِنَ الطَّرَازِ
الْأَوَّلِ ...

وَلِئِنَّمَا كَانَتْ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُجَاهِدَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(١) الذُّوَابَةُ : خصله من الشعر في مقدمة الرأس .

(٢) تَنْوُسُ : تتمايل .

فَلَكُمْ مَلَائِكَةٌ رِئْتِيهَا مِنْ غُبَارِ الْمُعَارِكِ الْعَبِقِ (١)
بِطُيُوبِ الْجَنَّةِ !!

وَخَضَّبَتْ (٢) أَنَامِلَهَا مِنْ جِرَاحِ الْمُجَاهِدِينَ ، وَهِيَ
تَمْسَحُهَا بِيَدَيْهَا وَتُحَكِّمُ عَلَيْهَا الضَّمَادَ (٣).

وَلَكُمْ سَكَبَتْ الْمَاءَ فِي حُلُوقِ الْعِطَاشِ وَهُمْ
يَجُودُونَ بِنَفْسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
وَحَمَلَتْ لَهُمُ الزَّادَ ... وَأَصْلَحَتِ السَّهَامَ .

* * *

لَقَدْ شَهِدَتْ «أُحْدَا» هِيَ وَرَوْجُهَا أَبُو طَلْحَةَ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَدَأَبَتْ هِيَ وَعَائِشَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا
عَلَى نَقْلِ قِرْبِ الْمَاءِ عَلَى ظَهْرَيْهِمَا وَإِفْرَاقِهَا فِي أَفْوَاهِ
الْقَوْمِ .

كَمَا شَهِدَتْ «حُنَيْنًا» أَيْضاً ، وَقَدْ اتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا

(١) الْعَبِقُ : الْمَضْمَخُ بِالطَّيْبِ .

(٢) خَضَّبَتْ : لَوَّنَتْ ، وَالْخَضَابُ هُوَ الْحَنَاءُ .

(٣) الضَّمَادُ : مَا يَرْتَبُ بِهِ الْجِرَاحُ .

يَوْمَ ذَاكَ خِنْجَرًا وَتَمَنَّنَطَقْتُ بِهِ ، فَلَمَّا رَأَهُ زَوْجُهَا أَبُو طَلْحَةَ
قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذِهِ أُمُّ سَلِيمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ .

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(مَا هَذَا يَا أُمَّ سَلِيمٍ ؟) .

قَالَتْ : خِنْجَرٌ اتَّخَذْتُهُ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ
المُشْرِكِينَ بَقَرْتُ^(١) بِهِ بَطْنَهُ ...

فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ سُورًا بِمَا قَالَتْ .

* * *

وَبَعْدَ ... أَفْتَطُنُّ أَنْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ امْرَأَةٌ أَسْعَدَ
سَعَادَةً وَأَزْهَى خَاتِمَةً مِنْ أُمَّ سَلِيمٍ بَعْدَ أَنْ قَالَ فِيهَا رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ :

(دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ فِيهَا خَشْفَةً^(٢) ...)

فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ !

(١) بَقَرْتُ بَطْنَهُ : شَقْتُ بَطْنَهُ .

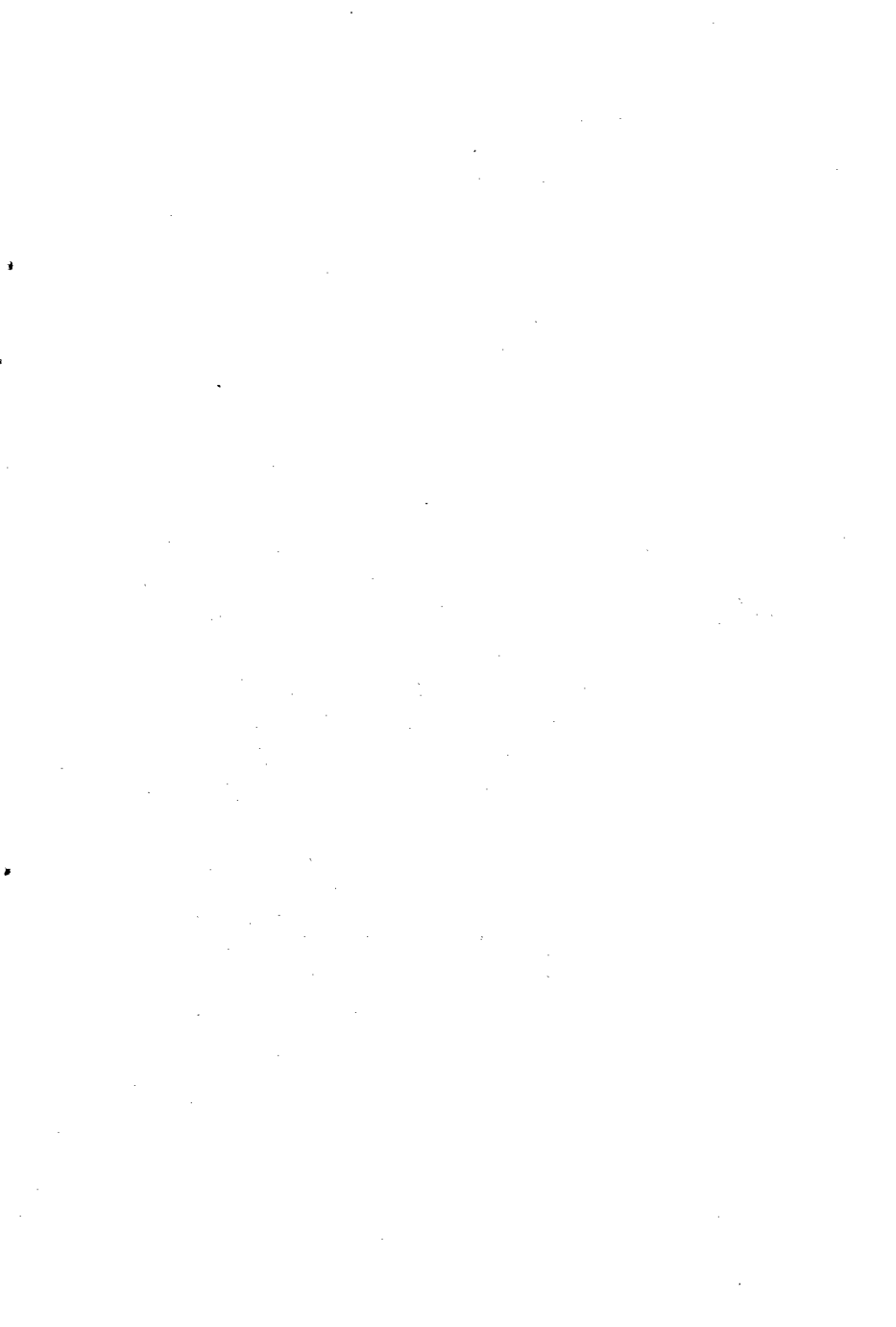
(٢) خَشْفَةٌ : حَرَكَةٌ مَشْيٍ .

قَالُوا: الْعَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمِّ أَنَسِ بْنِ

مَالِكِ (*) .

* * *

-
- (*) للاستزادة من أخبار العَمِيصَاءِ بِنْتُ مِلْحَانَ انظر:
- ١ - الطبقات الكبرى ١/٤٠٧، ٤٦٧ و ١١٦/٢ و ٥١٥/٣ و ١٩/٧ و ٨/٨، ١٠٤، ١٢١، ١٧٤.
 - ٢ - تاريخ الطبري: ٢/٢١، ٧٦ (انظر الفهارس في العاشر).
 - ٣ - حياة الصحابة: (انظر الفهارس في الرابع).
 - ٤ - السيرة لابن هشام: ٣/٣٥٤ - ٤/٨٨.
 - ٥ - سير أعلام النبلاء: ٢/٣٠٤ - ٣١١.
 - ٦ - المعارف لابن قتيبة: ٢٧١، ٣٠٨.
 - ٧ - أعلام النساء لكحالة: ٢/٢٥٦.
 - ٨ - تهذيب التهذيب: ١٢ - ٤٧١.
 - ٩ - الإصابة: ٤/٤٦١ (الترجمة) ١٣٢١.
 - ١٠ - الإستيعاب (على هامش الإصابة): ٤/٤٥٥.
 - ١١ - حلية الأولياء: ٢/٥٧.
 - ١٢ - صفة الصفوة: ٢/٦٥.
 - ١٣ - أشد الغابة: ٧/٢١٢.
 - ١٤ - المحبر: ٤٢٨.



أُمُّ سَلَمَةَ

أَيُّمُ الْعَرَبِ

لَمْ تَبْقَ هُنْدُ الْمَخْزُومِيَّةُ أَمَّا لِسَلَمَةَ وَخَدَةُ ؛
وَأَمَّا غَدَتْ أَمَّا لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ

أُمُّ سَلَمَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا أُمُّ سَلَمَةَ ؟!

أَمَّا أَبُوهَا فَسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ « مَخْزُومِ » الْمَرْمُوقِينَ ،
وَجَوَادٌ مِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُقَالُ
لَهُ : « زَادُ الرَّايِبِ » (١) ؛ لِأَنَّ الرُّكْبَانَ كَانَتْ لَا تَنْزَوُدُ
إِذَا قَصَدَتْ مَنَازِلَهُ أَوْ سَارَتْ فِي صُحْبَتِهِ .

وَأَمَّا زَوْجُهَا فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ أَحَدُ الْعَشْرَةِ
السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ؛ إِذْ لَمْ يُسْلِمِ قَبْلَهُ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ
الصَّدِيقُ وَنَفَرٌ قَلِيلٌ لَا يَبْلُغُ أَصَابِعَ اليَدَيْنِ عَدَدًا .

(١) هو أبو أمية بن المغيرة القرشي .

وَأَمَّا اسْمُهَا فَهِنْدُ، لَكِنَّهَا كُنِيَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ، ثُمَّ
غَلَبَتْ عَلَيْهَا الْكُنْيَةُ.

* * *

أَسْلَمَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مَعَ زَوْجِهَا فَكَانَتْ هِيَ الْأُخْرَى
مِنَ السَّابِقَاتِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَيْضاً.

وَمَا إِنْ شَاعَ نَبَأُ إِسْلَامِ أُمِّ سَلَمَةَ وَزَوْجِهَا حَتَّى
هَاجَتْ قُرَيْشٌ وَمَاجِثٌ وَجَعَلَتْ تَصُبُّ عَلَيْهِمَا مِنْ
نَكَالِهَا (١) مَا يُزَلُّ الصَّمُّ الصَّلَابَ (٢)، فَلَمْ يَضْعُفَا وَلَمْ
يَهِنَا وَلَمْ يَتَرَدُّدَا.

وَلَمَّا اسْتَدَّ عَلَيْهِمَا الْأَذَى وَأَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَى «الْحَبَشَةِ» كَانَا فِي طَلِيعَةِ
الْمُهَاجِرِينَ.

* * *

مَضَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَزَوْجُهَا إِلَى دِيَارِ الْغُرَبَاءِ وَخَلَقَتْ
وَرَاءَهَا فِي مَكَّةَ بَيْتَهَا الْبَادِخَ (٣) وَعِزَّهَا الشَّامِخَ، وَنَسَبَهَا

(١) النكال: الأذى الشديد الذي يجعل المصاب به عبءاً لغيره.
(٢) الصم الصلاب: الصخور القاسية. (٣) البادخ: العالي الرفيع.

العريق ، مُحْتَسِبَةٌ^(١) ذَلِكَ كُلُّهُ عِنْدَ اللَّهِ ، مُسْتَقَلَّةٌ لَهُ فِي
جَنْبِ مَرْضَاتِهِ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا لَقِيَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ وَصَحْبُهَا مِنْ حِمَايَةِ
النَّجَاشِيِّ^(٢) نَضَرَ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ وَجْهَهُ ، فَقَدْ كَانَ الشُّوقُ
إِلَى مَكَّةَ مَهْبِطِ الْوَحْيِ ، وَالْحَيْنُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
مُضَدِّرِ الْهُدَى يَفْرِي كَيْدَهَا وَكَيْدَ زَوْجِهَا فَرْيَا .

ثُمَّ تَتَابَعَتِ الْأَخْبَارُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ
« الْحَبَشَةِ » بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ قَدْ كَثُرَ عَدَدُهُمْ ، وَأَنَّ
إِسْلَامَ حَمْرَةَ بِنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَدْ شَدَّ
مِنْ أَرْزِهِمْ^(٣) ، وَكَفَّ شَيْعًا مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ عَنْهُمْ ، فَعَزَمَ
فَرِيقٌ مِنْهُمْ عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ ، يَحْدُوهُمْ^(٤) الشُّوقُ
وَيَدْعُوهُمْ الْحَيْنُ ...

(١) محتسبة : طالبة الجزاء من الله .

(٢) النجاشي : ملك الحبشة ... انظره في كتاب « صور من حياة التابعين »
للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) شدَّ أزرهم : قواهم .

(٤) يحدوهم الشوق : يسوقهم الشوق .

فَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَزَوْجُهَا فِي طَلِيعَةِ الْعَائِدِينَ .

* * *

لَكِنْ سَرَعَانَ مَا اكْتَشَفَ الْعَائِدُونَ أَنَّ مَا نُمِّي إِلَيْهِمْ
مِنْ أَخْبَارٍ كَانَ مُبَالِغاً فِيهِ ، وَأَنَّ الْوَثْبَةَ الَّتِي وَثَبَهَا الْمُسْلِمُونَ
بَعْدَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ وَعُمَرَ ، قَدْ قُوبِلَتْ مِنْ قُرَيْشٍ بِهَجْمَةٍ
أَكْبَرَ .

فَافْتَنَّ الْمُشْرِكُونَ فِي تَعْدِيبِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرْوِيعِهِمْ ،
وَأَذْأَقُوهُمْ مِنْ بَأْسِهِمْ مَا لَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَدِنَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ
بِالهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَعَزَمَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَزَوْجُهَا عَلَى أَنْ
يَكُونَا أَوَّلَ الْمُهَاجِرِينَ فِرَاراً بِدِينِهِمَا وَتَخْلِصاً مِنْ أَدَى
قُرَيْشٍ .

لَكِنْ هِجْرَةُ أُمِّ سَلَمَةَ وَزَوْجِهَا لَمْ تَكُنْ سَهْلَةً مُيسَّرَةً
كَمَا خُيِّلَ لَهُمَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ شَاقَّةً مُرَّةً خَلَفَتْ وَرَاءَهَا
مَأْسَاءٌ تَهُونُ دُونَهَا كُلِّ مَأْسَاءٍ .

فَلْتَشْرِكِ الْكَلَامَ لِأُمِّ سَلَمَةَ لِتَرْوِي لَنَا قِصَّةَ مَأْسَائِهَا ...

فَشَعْرُهَا بِهَا أَشَدُّ وَأَعَمَقُ ، وَتَصْوِيرُهَا لَهَا أَدْقُ
وَأَبْلَغُ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

لَمَّا عَزَمَ أَبُو سَلَمَةَ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَعَدَّ لِي
بَعِيرًا ، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ طِفْلَنَا سَلَمَةَ فِي حِجْرِي ،
وَمَضَى يَقُودُ بِنَا الْبَعِيرَ وَهُوَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ (١) .

وَقَبِلَ أَنْ نَفِصَلَ (٢) عَنْ مَكَّةَ رَأَى رِجَالَ مِنْ قَوْمِي بَنِي
« مَخْزُومٍ » فَتَصَدَّوْا لَنَا وَقَالُوا لِأَبِي سَلَمَةَ :

إِنْ كُنْتَ قَدْ غَلَبْتَنَا عَلَى نَفْسِكَ ، فَمَا بَالُ امْرَأَتِكَ
هَذِهِ !؟

وَهِيَ يَشْتَنُ ، فَعَلَامَ نَتْرُكُكَ تَأْخُذُهَا مِنَّا وَتَسِيرُ بِهَا فِي

الْبِلَادِ !؟

ثُمَّ وَثَبُوا عَلَيْهِ ، وَانْتَرَعُونِي مِنْهُ انْتِرَاعًا .

(١) لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ : لَا يَقِفُ عِنْدَ شَيْءٍ وَلَا يَنْتَظِرُ .

(٢) قَبِلَ أَنْ نَفِصَلَ عَنْ مَكَّةَ : قَبِلَ أَنْ نَخْرُجَ مِنْهَا .

وَمَا إِنْ رَأَهُمْ قَوْمٌ زَوْجِي بَنُو «عَبْدِ الْأَسَدِ»
يَأْخُذُونَنِي أَنَا وَطِفْلِي ، حَتَّى غَضِبُوا أَشَدَّ الْغَضَبِ وَقَالُوا :
لَا وَاللَّهِ لَا نَتْرُكُ الْوَلَدَ عِنْدَ صَاحِبَيْتِكُمْ بَعْدَ أَنْ
انْتَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا انْتِزَاعاً ... فَهَوَّ ابْنُنَا وَنَحْنُ أَوْلَى
بِهِ .

ثُمَّ طَفِقُوا يَتَجَادَبُونَ طِفْلِي سَلَمَةً بَيْنَهُمْ عَلَى مَشْهَدِ
مَنِّي حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ وَأَخَذُوهُ .

وَفِي لَحْظَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي مُمَزَّقَةً الشُّمْلِ وَحِيدَةً
فَرِيدَةً :

فَزَوْجِي اتَّجَهَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِرَاراً بِدِينِهِ وَنَفْسِهِ ...
وَوَلَدِي اخْتَطَفَهُ بَنُو «عَبْدِ الْأَسَدِ» مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ
مُحْطَباً مَهِيضاً (١) ...

أَمَّا أَنَا فَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيَّ قَوْمِي بَنُو «مَخْزُومٍ» ،
وَجَعَلُونِي عِنْدَهُمْ ...

(١) مهيضاً: ممزقاً مكشراً.

فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي فِي سَاعَةٍ .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ جَعَلْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى
الْأَبْطَحِ ، فَأَجْلِسُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي شَهِدَ مَأْسَاتِي ،
وَأَسْتَعِيدُ صُورَةَ اللَّحْظَاتِ الَّتِي حِيلَ فِيهَا بَيْنِي وَبَيْنَ وُلْدِي
وَزَوْجِي ، وَأَظَلُّ أَبْكِي حَتَّى يُخَيِّمَ عَلَيَّ اللَّيْلُ .

وَبَقِيتُ عَلَى ذَلِكَ سَنَةً أَوْ قَرِيباً مِنْ سَنَةٍ إِلَى أَنْ مَرَّ بِي
رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي فَرَّقَ لِحَالِي وَرَحِمَنِي وَقَالَ لَبْتِي
قَوْمِي :

أَلَا تُطْلِقُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ !! فَرَفْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا .

وَمَا زَالَ بِهِمْ يَسْتَلِينُ قُلُوبَهُمْ وَيَسْتَدِيرُ عَطْفَهُمْ حَتَّى
قَالُوا لِي : الْحَقِي بِزَوْجِكَ إِنْ شِئْتَ .

وَلَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ أَلْحَقَ بِزَوْجِي فِي الْمَدِينَةِ وَأَتْرُكَ
وُلْدِي وَفَلَذَةَ^(١) كَبِدِي فِي مَكَّةَ عِنْدَ بَنِي «عَبْدِ الْأَسَدِ» ؟

(١) فلذة كبدِي : قطعة كبدِي .

كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَهْدَأَ لِي لَوْعَةٌ أَوْ تَرْقَأَ لِعَيْنِي عَبْرَةٌ (١)
وَأَنَا فِي دَارِ الْهَجْرَةِ وَوَلَدِي الصَّغِيرُ فِي مَكَّةَ لَا أَعْرِفُ عَنْهُ
شَيْئًا ١١٢

وَرَأَى بَعْضُ النَّاسِ مَا أُعَالِجُ (٢) مِنْ أَحْزَانِي
وَأَشْجَانِي فَرَقَّتْ قُلُوبُهُمْ لِحَالِي ، وَكَلَّمُوا بَنِي «عَبْدِ
الْأَسَدِ» فِي شَأْنِي (٣) وَاسْتَعَطَفُوهُمْ عَلَيَّ فَرَدُّوا لِي وَلَدِي
سَلَمَةً .

* * *

لَمْ أَشَأَنَّ أَنْ أَتَرَيَّ فِي مَكَّةَ حَتَّى أَجِدَ مَنْ أَسَافِرُ مَعَهُ ؛
فَقَدْ كُنْتُ أَحْشَى أَنْ يَحْدُثَ مَا لَيْسَ بِالْحُسْبَانِ فَيَعُوقَنِي
عَنِ اللَّحَاقِ بِزَوْجِي عَائِقٌ ...

لِذَلِكَ بَادَرْتُ فَأَعْدَدْتُ بَعِيرِي ، وَوَضَعْتُ وَلَدِي
فِي حِجْرِي ، وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَ الْمَدِينَةِ أُرِيدُ
زَوْجِي ، وَمَا مَعِيَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ .

(١) ترقأ لعيني عبرة : تجف لعيني دموعه .

(٢) أعالج : أعاني .
(٣) في شأني : في أمري .

وَمَا إِنْ بَلَغْتُ «التَّعِيمَ» (١) حَتَّى لَقَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ
طَلْحَةَ (٢) فَقَالَ :

إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتُ «زَادِ الرَّايِبِ» ؟!

فَقُلْتُ : أُرِيدُ زَوْجِي فِي الْمَدِينَةِ .

قَالَ : أَوْ مَا مَعَكَ أَحَدٌ ؟!

قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ بُنِّي هَذَا .

قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَتْرُكُكَ أَبَدًا حَتَّى تَبْلُغِي الْمَدِينَةَ .

ثُمَّ أَخَذَ بِخِطَامِ (٣) بَعِيرِي وَأَنْطَلَقَ يَهْوِي بِي ...

فَوَاللَّهِ مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ قَطُّ أَكْرَمَ مِنْهُ

وَلَا أَشْرَفَ ، كَانَ إِذَا بَلَغَ مَنْزِلًا مِنَ الْمَنَازِلِ يُنْبِئُ بَعِيرِي ،

ثُمَّ يَسْتَأْخِرُ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ عَنْ ظَهْرِهِ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى

(١) التَّعِيمَ : مكان عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ .

(٢) عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ : كَانَ حَاجِبَ بَيْتِ اللَّهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَسْلَمَ مَعَ خَالِدِ

ابْنِ الْوَلِيدِ وَشَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ

وَكَانَ يَوْمَ رَافِقِ أُمِّ سَلَمَةَ مُشْرِكًا .

(٣) الْخِطَامُ : حَبْلٌ يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْبَعِيرِ لِيُقَادَ بِهِ .

الأرض دَنَا إِلَيْهِ وَحَطَّ عَنْهُ رَحْلُهُ ، وَاقْتَادَهُ إِلَى شَجَرَةٍ وَقَيْدَهُ فِيهَا .

ثُمَّ يَنْتَحِي عَنِّي إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَيَضْطَجِعُ فِي ظِلِّهَا .

فَإِذَا حَانَ الرُّوَاخُ قَامَ إِلَيَّ بَعِيرِي فَأَعَدَّهُ ، وَقَدَّمَهُ إِلَيَّ ، ثُمَّ يَسْتَأْخِرُ عَنِّي وَيَقُولُ : إِزْكِي ، فَإِذَا رَكِبْتُ ، وَاسْتَوَيْتُ عَلَى البَعِيرِ ، أَتَى فَأَخَذَ بِخَطَامِهِ وَقَادَهُ .

* * *

وَمَا زَالَ يَصْنَعُ بِي مِثْلَ ذَلِكَ كُلِّ يَوْمٍ حَتَّى بَلَّغْنَا المَدِينَةَ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَرْيَةَ « بَقْبَاءَ » ^(١) لَيْتِي عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ قَالَ زَوْجُكَ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ ، فَأَدْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ ، ثُمَّ انصَرَفَ رَاجِعاً إِلَى مَكَّةَ .

* * *

اجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيْتُ ^(٢) بَعْدَ طُولِ افْتِرَاقٍ ، وَقَرَّتْ

(١) بَقْبَاءُ : قَرْيَةٌ فِي ضَوَاحِي المَدِينَةِ تَبْعُدُ عَنْهَا مِائَتَانِ ، وَفِيهَا مَسْجِدُ بَقْبَاءِ أَوَّلِ مَسْجِدِ أَسَسَ عَلِيُّ التَّقْوَى .

(٢) الشَّتِيْتُ : المَفْرُوقُ .

عَيْنُ أُمِّ سَلَمَةَ بِزَوْجِهَا، وَسَعِدَ أَبُو سَلَمَةَ بِصَاحِبَتِهِ
وَوَلَدِهِ ... ثُمَّ طَفِقَتِ الْأَحْدَاثُ تَمْضِي سِرَاعاً كَلْمَحٍ
الْبَصْرِ.

فَهَذِهِ «بَدْرٌ» يَشْهَدُهَا أَبُو سَلَمَةَ وَيَعُودُ مِنْهَا مَعَ
الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ انْتَصَرُوا نَصراً مُؤَزَّراً^(١).

وَهَذِهِ «أَحَدٌ»، يَخُوضُ غِمَارَهَا بَعْدَ بَدْرِ، وَيُثَلِّي
فِيهَا أَحْسَنَ الْبَلَاءِ وَأَكْرَمَهُ، لِكِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا وَقَدْ جُرِحَ
جُرْحاً بَلِيغاً، فَمَا زَالَ يُعَالِجُهُ حَتَّى بَدَأَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ انْدَمَلَ^(٢)،
لَكِنَّ الْجُرْحَ كَانَ قَدْ رُمَّ عَلَى فَسَادِ^(٣) فَمَا لَبِثَ أَنْ
انْتَكأ^(٤) وَالزَّمَّ أَبَا سَلَمَةَ الْفِرَاشَ.

وَفِيمَا كَانَ أَبُو سَلَمَةَ يُعَالِجُ مِنْ جُرْحِهِ قَالَ لِزَوْجِهِ:
يَا أُمَّ سَلَمَةَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:
(لَا تُصِيبُ أَحَدًا مُصِيبَةً، فَيَسْتَرْجِعُ^(٥) عِنْدَ ذَلِكَ
وَيَقُولُ:

(١) مؤزراً: قولاً مبنياً. (٤) انتكأ: انفتح.
(٢) اندمل: تماثل للشفاء. (٥) يسترجع: يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٣) رم الجرح على فساد: يعني صلح في الظاهر وهو فاسد في الحقيقة.

اللَّهُمَّ عِنْدَكَ اِحْتَسَبْتُ مُصِيبَتِي هَذِهِ ...
اللَّهُمَّ اَخْلِفْنِي خَيْرًا مِنْهَا، اِلَّا اَعْطَاهُ اللهُ عَزْرًا
وَجَلًّا ...)

* * *

ظَلَّ أَبُو سَلَمَةَ عَلَى فِرَاشِ مَرَضِهِ أَيَّامًا . وَفِي ذَاتِ
صَبَاحٍ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَعُودَهُ ، فَلَمْ يَكُذْ يَنْتَهِي مِنْ
زِيَارَتِهِ وَيُجَاوِزُ بَابَ دَارِهِ ، حَتَّى فَارَقَ أَبُو سَلَمَةَ الْحَيَاةَ .
فَأَعْمَضَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِيَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ
عَيْنَيْ صَاحِبِهِ ، وَرَفَعَ طَرْفَهُ اِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ :
(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي
الْمُقَرَّبِينَ ...)

وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ (١) فِي الْغَابِرِينَ .

وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ...

وَأَفْسِحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ ، وَنَوِّزْ لَهُ فِيهِ) .

(١) اخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ : كُنْ عِوَضًا عَنْهُ لِأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ .

أَمَّا أُمُّ سَلَمَةَ فَتَذَكَّرَتْ مَا رَوَاهُ لَهَا أَبُو سَلَمَةَ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ :

اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيبَتِي هَذِهِ ...

لَكِنَّهَا لَمْ تَطِبْ نَفْسَهَا أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَخْلِفْنِي (١)
فِيهَا خَيْرًا مِنْهَا ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَسَاءَلُ ، وَمَنْ عَسَاهُ أَنْ
يَكُونَ خَيْرًا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ !؟

لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ أَتَمَّتِ الدُّعَاءَ ...

* * *

حَزَنَ الْمُسْلِمُونَ لِمَصَابِ أُمِّ سَلَمَةَ كَمَا لَمْ يَحْزَنُوا
لِمَصَابِ أَحَدٍ مِنْ قَبْلُ ...

وَأَطْلَقُوا عَلَيْهَا اسْمَ « أَيْمٍ » (٢) الْعَرَبِ ...

إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْ ذَوِيهَا غَيْرَ صَبِيَّةٍ
صِغَارِ كَرْزُغِ الْقَطَا (٣) .

* * *

(١) اخْلِفْنِي فِيهَا خَيْرًا مِنْهَا : عَوْضَنِي عَنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا .

(٢) الْأَيْمُ : الْمَرْأَةُ الَّتِي فَقَدَتْ زَوْجَهَا .

(٣) كَرْزُغِ الْقَطَا : كَفْرَاخِ الْقَطَا الَّتِي لَمْ يَنْبِت رِيَشَهَا ، وَالْقَطَا : نَوْعٌ مِنَ الْبِيَامِ

يُؤَثِّرُ الْحَيَاةَ فِي الصَّحْرَاءِ ، مَفْرَدَةٌ قَطَاةٌ .

شَعَرَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ مَعًا بِحَقِّ أُمِّ سَلَمَةَ
عَلَيْهِمْ ، فَمَا كَادَتْ تَنْتَهِي مِنْ جِدَادِهَا عَلَى أَبِي سَلَمَةَ
حَتَّى تَقْدَمَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ الصُّدِّيقُ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ فَأَبَتْ أَنْ
تَسْتَجِيبَ لِطَلْبِهِ ...

ثُمَّ تَقْدَمَ مِنْهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَرَدَّتْهُ كَمَا رَدَّتْ
صَاحِبَتَهُ ...

ثُمَّ تَقْدَمَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فِيَّ خِلَالَ^(١) ثَلَاثًا :

فَأَنَا امْرَأَةٌ شَدِيدَةُ الْغَيْرَةِ فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا

يُغْضِبُكَ فَيُعَذِّبُنِي اللَّهُ بِهِ .

وَأَنَا امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتُ فِي السِّنِّ^(٢) .

وَأَنَا امْرَأَةٌ ذَاتُ عِيَالٍ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَمَا مَا ذَكَرْتِ مِنْ غَيْرَتِكَ فَإِنِّي أَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

أَنْ يُذْهِبَهَا عَنْكَ .

(٢) دخلت في السن : تجاوزت بين الزواج .

(١) خِلَالًا : صفات .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السَّنِّ فَقَدْ أَصَابْتِي مِثْلَ الَّذِي
أَصَابَكَ ...

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ ، فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي .
ثُمَّ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ ؛ فَاسْتَجَابَ
اللَّهُ دُعَاءَهَا ، وَأَخْلَفَهَا خَيْرًا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ .
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ تَبْقَ هُنْدُ الْمَخْزُومِيَّةُ أُمَّاً لِسَلَمَةَ
وَخَدَةَ ؛ وَإِنَّمَا عَدَّتْ أُمَّاً لَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ .
نَصَّرَ اللَّهُ وَجْهَ أُمِّ سَلَمَةَ فِي الْجَنَّةِ وَرَضِيَ عَنْهَا
وَأَرْضَاهَا (*) .

* * *

(*) للاستزادة من أخبار أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا انظر :

- ١ - الإصابة : ٤٥٨/٤ (الترجمة) ١٣٠٩ .
- ٢ - الاستيعاب (على هامش الإصابة) : ٤٥٤/٤ .
- ٣ - تهذيب التهذيب : ٤٥٥/١٢ - ٤٦٥ .
- ٤ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٩٧/٣ - ٩٨ .
- ٥ - البداية والنهاية : ٢١٤/٨ - ٢١٥ .
- ٦ - صفة الصفوة : ٢٠/٢ - ٢١ .
- ٧ - شذرات الذهب : ٦٩/١ - ٧٠ .
- ٨ - أشد الغابة : ٥٨٨/٥ - ٥٨٩ .
- ٩ - تقريب التهذيب : ٦٢٧/٢ .
- ١٠ - الأعلام ومراجعته : ١٠٤/٩ .
- ١١ - ابن كثير : ٩١/٤ .